بنية المعرفة في الجامعات المُغَرَّبة: العنصرية المعرفية، والتمييز الجنسي المعرفي، والإبادات الجماعية البشرية والمعرفية الأربع في القرن السادس عشر الطويل*

تأليف: رامون غروسفوكيل Ramón Grosfoguel**

تعريب: بدر الحاكيمي***

الملخص

هذا البحث مستوحىً من العمل التاريخي والفلسفي للكاتب إنريك داسل Enrique Dussel عن الفلسفة الديكارتية واحتلال الأمريكتين، وهو يناقش العنصرية المعرفية، والتمييز الجنسي المعرفي المُؤسِّس لِبنية المعرفة في الجامعة المُغَرَّبة، ويقترح أن الامتياز المعرفي للرجل الغربي في بنية المعرفة في هذا النوع من الجامعات، هو نتيجة لأربع إبادات جماعية بشرية ومعرفية شهدها القرن السادس عشر الطويل (ضد السكان الأصليين من المسلمين واليهود في احتلال الأندلس، وضد الشعوب الأصلية في احتلال الأمريكتين، وضد الأفارقة المختطفين والمستعبدين في الأمريكتين، وضد

---

* توثيق المقالة الأصل.

Grosfoguel, Ramón (2013) "The Structure of Knowledge in Westernized Universities: Epistemic Racism/Sexism and the Four Genocides/Epistemicides of the Long 16th Century," *Human Architecture: Journal of the Sociology of Self-Knowledge*: Vol. 11 : Iss. 1 , Article 8. Available at:

- https://scholarworks.umb.edu/humanarchitecture/vol11/iss1/8

وقد حصل المترجم على إذن من المؤلف بترجمتها ونشرها في مجلة إسلامية المعرفة.

** رامون غروسفوكيل عالم اجتماع أميركي من بورتوريكو، أستاذ مشارك في جامعة كاليفورنيا بيركلي، شعبة الدراسات الإثنية. وهو باحث مهتم بمناهضة الاستعمار المعرفي، والإمبريالية الثقافية، والإسلاموفوبيا، والعنصرية، وغير ذلك. حصل على شهادة الإجازة في علم الاجتماع من جامعة بورتو ريكو Puerto Rico عام ١٩٧٩م، وشهادة الماجستير في تخصص الدراسات الحضرية من جامعة تمبل في ولاية بنسلفانيا الأمريكية Temple Univerisity عام ١٩٨٦م، وشهادة الدكتوراه في علم الاجتماع من الجامعة نفسها عام ١٩٩٢م. حظي بمجموعة من الوظائف، وأشرف على جملة من المشروعات العلمية، وتُوِّجت مجهوداته بمجموعة من الجوائز، وله العشرات من الدراسات والمقالات. ويمكن للقارئ الاطِّلاع على سيرته وأعماله عن طريق الرابط الآتي:

- http://www.arquitecturadelastransferencias.net/images/p-grosfogel/Grosfoguel-CV-11-01-2011-1.pdf. (المترجم)

*** باحث في سلك الدكتوراه بدار الحديث الحسنية، وحدة العقيدة والقرآن، الرباط، المغرب. البريد الإلكتروني: Badr.modem@gmail.com

تم تسلم البحث بتاريخ ٢٠١٥/٨/١٩م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٧/٧/١٣م.

النساء اللواتي حُرِقْنَ أحياءً في أوروبا بدعوى ممارستهن السحر). يقترح البحث أيضاً أن حجة داسل التي مفادها أن شرط إمكانية المقولة الديكارتية لمنتصف القرن السابع عشر: "أنا أُفكِّر، إذن أنا موجود"، هو (١٥٠) عاماً من تطبيق مقولة: "أنا أحتل، إذن أنا موجود" التي تَوسَّطَت تاريخياً بالإبادة الجماعية البشرية والمعرفية المُتمثِّلة في مقولة: "أنا أُبيد، إذن أنا موجود". فعبارة "أنا أُبيد" هي وساطة بنيوية سوسيوتاريخية بين التعبير الوثني: "أنا أُفكِّر"، و"أنا أحتل".

الكلمات المفتاحية: الجامعة المُغرَّبة، العنصرية المعرفية، التمييز الجنسي المعرفي، تخطي الحداثة، الحداثة، ما بعد الحداثة، الأورومركزية، العالمية الواحدة، العالمية المتعددة، الجامعة المتعددة..

The Structure of Knowledge in Westernized Universities: Epistemic Racism/Sexism and the Four Genocides/Epistemicides of the Long 16th Century

Ramón Grosfoguel

Abstract

This article is inspired by Enrique Dussel's historical and philosophical work on Cartesian philosophy and the conquest of the Americas. It discusses the epistemic racism/sexism that is foundational to the knowledge structures of the Westernized University. The article proposes that the epistemic privilege of Western Man in Westernized Universities' structures of knowledge, is the result of four genocides/epistemicides in the long 16th century (against Jewish and Muslim origin population in the conquest of Al-Andalus, against indigenous people in the conquest of the Americas, against Africans kidnapped and enslaved in the Americas and against women burned alive, accused of being witches in Europe). The article proposes that Dussel's argument in the sense that the condition of possibility for the mid-17th century Cartesian “I think, therefore I am” (ego cogito) is the 150 years of "I conquer, therefor I am" (ego conquiro) is historically mediated by the genocide/epistemicide of the "I exterminate, therefore I am" (ego extermino). The 'I exterminate’ is the socio-historical structural mediation between the idolatric 'I think' and the 'I conquer'.

Key Words: Westernised University, Epistemic Racism, Epistemic Sexism, Transmodernity, Modernity, Postmodernity, Eurocentrism, Universalism, Pluriversalism, Pluriversity.

مقدمة:

يُعَدُّ عمل اللاهوتي وفيلسوف التحرير إنريك داسل أساسياً لكل مهتم بمناهضة استعمار المعرفة والسلطة؛ إذ ألَّف ما يزيد على خمسة وستين كتاباً، وكرَّس جهده الجبّار للقضاء على المؤسسات الفلسفية والسرد التاريخي العالمي للمركزية الأوروبية. ولم يكتفِ بهدم بنية المعرفة المهيمنة فحسب، بل شيَّد مجموعة أعمال في الأخلاق، والفلسفة السياسية، والاقتصاد السياسي الذي كان مُؤثِّراً جداً على المستوى العالمي؛ فقد احتضن عملُه العديدَ من مجالات الدراسة، مثل: الاقتصاد السياسي، وتاريخ العالم، والفلسفة، إلى جانب أعمال أخرى.

وهذا البحث مُستلهَم من نقد داسل للفلسفة الديكارتية، ومن عمله التاريخي العالمي المتعلق باحتلال الأمريكتين خلال القرن السادس عشر الطويل.[١] وهو يضيف أيضاً – استلهاماً من رؤى داسل– بُعْداً آخرَ، إلى جانب إسهاماته الكثيرة، عن طريق النظر في احتلال الأمريكتين، وعلاقته بثلاث عمليات تاريخية عالمية أخرى (احتلال الأندلس، واستعباد الأفارقة في الأمريكتين، وقتل ملايين النساء اللاتي حُرِقْنَ أحياءً في أوروبا بتهمة الشعوذة والسحر)، في ارتباطِ هذه العمليات الأربع ببنى المعرفة.[٢] ومثلما ركَّز داسل على المنطق الإبادي للاحتلال، فإن هذا البحث يرصد آثار الإبادات الجماعية البشرية الأربع للقرن السادس عشر الطويل، التي سمّاها بوفنتيرا دي سوسا سانتوس Boaventura de sousa santos الإبادة المعرفية،[٣] التي تعني إبادة المعرفة، وسُبُل الإدراك. فهذا البحث

[١] مصطلح "القرن السادس عشر الطويل" هو للمؤرخ الفرنسي فرناند بروديل Fernand Braudel الذي أثَّر في عمل المفكر إيمانويل وولارشتاين Immanuel Wallerstein (١٩٧٤م) صاحب فكرة "نظام العالم". بدأ استخدام هذا المصطلح في الفترة الممتدة بين عامي (١٤٥٠م) و(١٦٥٠م)، وهي فترة تكوين نظام تاريخي جديد سمّاه وولارشتاين بنظام العالم الحديث، أو اقتصاد العالم الأوروبي، أو اقتصاد العالم الرأسمالي. وقد استغرقت العملية التاريخية التي شكَّلت هذا النظام الجديد مئتي سنة من القرن السادس عشر الطويل. ومن الجدير بالذكر أن مصطلح "القرن السادس عشر الطويل" سيُستخدَم في الإشارة إلى العمليات طويلة المدى التي تشمل التكوين الأولي لهذا النظام التاريخي، في حين سيُستخدَم مصطلح "القرن السادس عشر" في الإشارة إلى ما قبل ١٥٠٠ سنة.

[٢] أعتقد أن التكريم الحقيقي للمثقف هو تقدير عمله لإبراز مظاهر جديدة مطروحة من أعماله.

[3] De Sousa Santos, Boaventura. *Epistemologias del sur*, Mexico: Siglo XXI. 2010.

يُركِّز أساساً على بروز بنى استعمارية حداثية للمعرفة بوصفها الإبستمولوجيا المُؤسِّسة للجامعات المُغَرَّبة، وآثارها المترتبة على مناهضة استعمار المعرفة.

أمَّا الأسئلة الأساسية التي يتناولها البحث فهي: كيف يمكن أنْ يَعتمد قانون الفكر في جميع تخصصات العلوم الاجتماعية والإنسانية في الجامعات المُغَرَّبة Westernized Universities على المعرفة التي أنتجها بضعة رجال ينتمون إلى خمس دول في أوروبا الغربية (إيطاليا، فرنسا، إنجلترا، ألمانيا، الولايات المتحدة الأمريكية)؟[4] كيف يمكن لرجال من هذه الدول الخمس* أنْ يُحقِّقوا مثل هذا الامتياز المعرفي، حتى إن معرفتهم اليوم تُعَدُّ متعالية عن معرفة بقية العالم؟ كيف أمكنهم احتكار سلطة المعرفة في العالم؟ لماذا يتوقَّف ما نعرفه اليوم، بوصفه نظرية فلسفية وتاريخية واجتماعية أو نظرية نقدية، على التجربة السوسيوتاريخية لهؤلاء الرجال ورؤيتهم للعالم؟

عندما يَلِجُ أحدٌ ما في أيِّ شعبة للعلوم الاجتماعية أو الإنسانية، فلا بُدَّ أنْ يعلم أن قانون الفكر الذي يتعيَّن عليه تعلُّمه هو أصلاً مُؤسَّس على نظرية أنتجها رجال من الدول الأوروبية الغربية الخمس الآنف ذكرها.[5] ولكن لو ظهرت نظرية مُعتمِدة في تصوُّرها على التجارب التاريخية الاجتماعية والحساسيات ورؤى العالم من فضاءات وهيئات خاصة غير هذه الدول الخمس، فإن النظريات العلمية الاجتماعية، أو أيَّ نظرية مقصورة على التجربة ورؤية العالم لهذه الدول الخمس، تَعُدُّها إذ ذاك -على أقل تقدير- إقليمية. غير أن هذه الإقليمية متنكرة تحت خطاب "العالمية". وذريعتها في ذلك أن المعرفة التي أنتجها رجال هذه الدول تمتلك تأثيراً سحرياً لاستيعاب العالم؛ ما يعني أن نظرياتهم يُفترَض فيها أن تكون كافية لشرح الوقائع التاريخية والاجتماعية لباقي دول العالم. وبناءً

[4] Grosfoguel, Ramon. "The Dilemmas of Ethnic Studies in the United States: Between Liberal Multiculturalism, Identity Politics, Disciplinary Colonization, and De-Colonial Epistemologies", Vol. X, No. 1, *Human Architecture: Journal of the Sociology of Self-Knowledge*, 2012, pp.81-90.

* دليل هذا الحصر مبني على أساس قانون الفكر السائد في مختلف جامعات العالم، أو على أساس واضعي النظريات المستخدمة في كل تخصصات الجامعة المُغرَّبة وشعبها، الذين يمتازون بالتنظير للآخر غير الغربي. فأسماء هؤلاء المُنظِّرين تتغير من تخصص إلى آخر، لكن جنسياتهم تتكرر باستمرار من دون تغيير. (المترجم)

[5] De Sousa Santos, *Epistemologias del sur*.

على ذلك، فإن وظيفتنا في الجامعة الـمُغَرَّبة تنحصر أساساً في تعلُّم النظريات المتولِّدة من تجربة ومشكلات منطقة خاصة من العالم (خمس دول من أوروبا الغربية)، ببُعْديها: الزماني، والمكاني الخاص، ثم "إعمالها" في مواقع جغرافية أخرى، حتى لو كان كلٌّ من التجربة والزمان والمكان في الأولى يختلف عنه تماماً في هذه الأخيرة.

إن هذه النظريات الاجتماعية التي تعتمد على التجربة التاريخية والاجتماعية لرجالٍ من خمس دول، تُشكِّل القاعدة الأساسية للعلوم الاجتماعية والإنسانية في الجامعات المغَرَّبة اليوم. أمَّا الجانب الآخر لهذا الامتياز المعرفي فهو الدونية المعرفية؛ فالامتياز المعرفي والدونية المعرفية طرفان لعملة واحدة يمكن تسميتها العملة العنصرية المعرفية، والتمييز الجنسي المعرفي.٦

فالمعرفة الـمُنتَجة في الجامعات المُغَرَّبة عن طريق نظريات معرفية، وعلوم كونية، ورؤى للعالم ناشئةٍ من مناطق أخرى من العالم، مع اختلافها في بُعْدي الزمان والمكان، وتميُّزها بسياسات جغرافية وهيئات سياسية مختلفة للمعرفة؛ تُعَدُّ دونيةً في حال مقارنتها بالمعرفة الرفيعة التي أنتجها رجال غربيون قلائل* من هذه الدول الخمس، والتي تُشكِّل قانون الفكر في العلوم الإنسانية والاجتماعية. والمعرفة الـمُنتَجة أيضاً من التجارب التاريخية والاجتماعية ورؤى العالم للجنوب العالمي Global South، المعروفة أيضاً بأنها غير غربية؛ تُعَدُّ دونيةً، لا جزءاً من قانون الفكر. يضاف إلى ذلك أن المعرفة التي تُنتِجها النساء (الغربيات، وغير الغربيات) تُعَدُّ دونيةً أيضاً، ومنبوذةً من قانون الفكر. فالبنى التأسيسية للمعرفة في الجامعة المُغَرَّبة هي في الآن نفسه تتسم بالعنصرية المعرفية، والتمييز الجنسي المعرفي. فما هي إذن العمليات التاريخية العالمية التي أَنتجَتْ بنى المعرفة الـمُؤسَّسة على العنصرية المعرفية، والتمييز الجنسي المعرفي؟

للإجابة عن هذا السؤال والأسئلة الآنف ذكرها، يَلزمنا الرجوع إلى الوراء عدَّة قرون، ومناقشة تَشكُّل العنصرية والتمييز الجنسي في العالم الحديث، وعلاقته بالمدَّة الطويلة لِلبنى

---

[6] Grosfoguel, *The Dilemmas of Ethnic Studies in the United States: Between Liberal Multiculturalism, Identity Politics, Disciplinary Colonization, and De-Colonial Epistemologies*, pp.81-90.

* تُمثِّل نسبة هؤلاء الذكور ١٢% فقط من سكان العالم. (المترجم)

الحداثية الخاصة بالمعرفة. وما دام التراث الديكارتي قد أثَّر كثيراً في البنى الغربية للمعرفة، فإن هذا البحث يبدأ في محوره الأول بمناقشة الفلسفة الديكارتية، ثم يعرض لمسألة احتلال الأندلس في المحور الثاني، في حين يناقش المحور الثالث مسألة احتلال الأمريكتين وما خلَّفته من آثار على السكان الأصليين من المسلمين واليهود في القرن السادس عشر بإسبانيا، وعلى الأفارقة المختطفين من إفريقيا الذينَ استُعبِدوا في الأمريكتين. أمَّا المحور الرابع فيتحدث عن الإبادة الجماعية البشرية والمعرفية التي تعرَّضت لها النساء الهندوأوروبيات اللواتي أُحرِقْنَ أحياءً من الكنيسة المسيحية بتهمة ممارستهن السحر، فيما يدور المحور الخامس الأخير حول مشروع إنريك داسل "تخطي الحداثة" Transmodernity، وتعرُّف المقصود من وضع حدٍّ لاستعمار الجامعة المُغرَّبة.

أولاً: الفلسفة الديكارتية

تُعَدُّ الفلسفة الديكارتية ضرورية لبدء أيِّ نقاش عن بنى المعرفة في الجامعات المُغَرَّبة؛ لأنه يُفترَض[٧] أنْ تكون الفلسفة الحديثة قد أُسِّسَت على يد ريني ديكارت.[٨] وتُمثِّل مقولته المشهورة: "أنا أُفكِّر، إذن أنا موجود" تأسيساً جديداً لمعرفةٍ تَحدَّتِ السلطةَ المعرفية للعالم المسيحي[٩] منذ عصر الإمبراطورية الرومانية. وعلى هذا، فإن أساس المعرفة الجديد الذي أنتجته الفلسفة الديكارتية لم يعد هو الإلهَ المسيحي، بل أصبح هو "أنا" الجديد. وبالرغم من أن ديكارت لم يُعرِّف قطُّ ما هو "أنا"، فإن من الواضح في فلسفته أن هذا الـ"أنا" يَحُلُّ مَحَلَّ الإله، بوصفه تأسيساً جديداً للمعرفة، ويتحلّى بصفات مُؤنْسنة للإله المسيحي.

[٧] قلتُ "يُفترَض"؛ لأن ديكارت، كما برهن إنريك داسل في مقالته المناهضة للتأملات الديكارتية، كان قد تأثَّر كثيراً بالفلاسفة المسيحيين في أثناء الاحتلال الإسباني للأمريكتين. انظر:

- Dussel, Enrique. "Anti-meditaciones cartesianas: sobre el origen del anti-discurso filosófico de la modernidad", *Tabula Rasa*, No 9, 2008a, pp.153-197.

[8] Descartes, Rene. *Discours de la Méthode*, Cambridge: Cambridge University Press, 2013.

[٩] عمدتُ إلى تمييز المسيحية من العالم المسيحي؛ فالمسيحية تعني التقليد الديني والروحي، في حين يشير العالم المسيحي إلى الحقبة التي أصبحت فيها المسيحية أيديولوجية مهيمنة مستخدمة من لدن الدولة. يُذكَر أن مفهوم "العالم المسيحي" ظهر في القرن الرابع بعد ميلاد المسيح حين استولى قسنطين على المسيحية، وحوَّلها إلى أيديولوجية رسمية للإمبراطورية الرومانية.

ويستطيع الـ"أنا" -من وجهة نظر ديكارت- أنْ يُنتِج معرفة حقيقية متجاوزة الزمان والمكان، وعالمية بحيث إنها غير مشروطة بأيِّ خصوصية، وموضوعية بمعنى أنها مساوية للحيادية، ومعادلة لمعرفة الإله.

ولكي يَدَّعي ديكارت أن الـ"أنا" يستطيع أنْ يُنتِج معرفة معادلة لمعرفة الإله؛ فقد ابتكر حجتين رئيستين: أنطولوجية، ومعرفية. والحجتان معاً تُشكِّلان شرط الإمكانية بخصوص دعواه من أن هذا الـ"أنا" يمكنه إنتاج معرفة معادلة لمعرفة الإله. وفيما يخص الحجة الأولى (الازدواجية الأنطولوجية)، فقد ادَّعى ديكارت أن العقل يتكون من مادة مختلفة عن جسم الإنسان؛ ما يسمح له بأن يكون غير محدود ومشروط بالجسم. وبهذه الطريقة يمكن لديكارت أنْ يَدَّعي أن العقل مماثل للإله المسيحي، عائم في السماء، غير محدود بأيِّ شيء أرضي، قادر على إنتاج معرفة معادلة لمعرفة الإله. فالعالمية هنا مساوية لعالمية الإله المسيحي من حيث إنها غير محدودة بأيِّ خصوصية، وأنها وراء أيِّ شرط أو وجود خاص. فصورة الإله في العالم المسيحي هي صورة رجلٍ أبيضَ، هَرِمٍ، ذي لحيةٍ، حاملٍ في يديه عصا، جالسٍ في السحاب، يشاهد كل واحد، ويعاقب أيَّ شخص صدر منه سوء تصرف.

ولكن، ماذا سيحدث لحجة ديكارت، الـمُتمثِّلة في أن العقل يمكنه إنتاج معرفة معادلة لمعرفة الإله، إذا كان العقل مُكوَّناً من مادة مشابهة للجسم؟ إن الأثر الرئيس الذي سيحدث هو انهيار دعوى الـ"أنا" الإنساني (إنتاج معرفة معادلة لمعرفة الإله)؛ فمن دون الازدواجية الأنطولوجية سيكون العقل قائماً في الجسم، ومماثلاً له في المادة، ومشروطاً بحدوده. وهذا المعنى الثاني سيؤول إلى أن المعرفة مُنتَجة من مكان خاص في العالم، وهو ما يشير إلى عدم وجود إنتاج معرفي غير حالٍّ في مكان معيّن. وإذا كان الأمر على هذا الحال، فإنه لا يمكن لأحد أنْ يَدَّعي بعد الآن أن "أنا" الإنساني يستطيع إنتاج معرفة معادلة لمعرفة الإله.[١٠]

---

[١٠] لمعرفة المزيد عن هذه المسألة، انظر:

- Dussel, Enrique. *The Invention of the Americas*, New York: Continuum, 1995.
- Haraway, Donna, "Situated Knowledges: the Science Question in Feminism and the Privilege of Partial Perspective", *Feminist Studies*, 14, 1988, pp.575-99.

وفيما يخص الحجة الثانية (الإبستمولوجية)، يرى ديكارت أن السبيل الوحيدة التي يستطيع "الأنا" أنْ يُحقِّق اليقين عن طريقها في الإنتاج المعرفي، هي منهجية نظرية الأنا Solipsism. فكيف يمكن للـ"أنا" أنْ يحارب الشكية، ويُحقِّق اليقين في الإنتاج المعرفي؟ الجواب الـمُقدَّم من لدن ديكارت هو أنه يمكن تحقيق ذلك بحوار أحادي داخلي للموضوع مع نفسه (الجنس هنا ليس عرضياً لأسباب سنُبيِّنها فيما بعدُ). فعن طريق منهجية نظرية الأنا، يمكن للشخص أنْ يطرح أسئلة، ثم يجيب عنها في حوار أحادي داخلي حتى يصل اليقين في المعرفة. ولكن، ما الذي قد يحدث لو أَنتج الإنسان معرفة عن طريق الحوار؛ أي في علاقات اجتماعية مع كائنات إنسانية أخرى؟ إن الأثر الرئيس الذي سيحدث هو انهيار ادِّعاء ديكارت بأن الـ"أنا" يمكنه إنتاج اليقين في المعرفة بعيداً عن العلاقات الاجتماعية مع كائنات إنسانية أخرى؛ فمن دون نظرية الأنا المعرفية، سيكون الـ"أنا" موجوداً في علاقات اجتماعية خاصة، وفي سياقات تاريخية واجتماعية معيّنة. ولهذا السبب، لا يوجد إنتاج معرفي غير اجتماعي، وغير قائم في مكان، وناتج عن خطاب أحادي فردي. فإذا أُنتِجَت المعرفة في علاقات اجتماعية خاصة (داخل مجتمع خاص)، فإنه لا يمكن حينئذٍ ادِّعاء أن الـ"أنا" الإنساني يستطيع أنْ يُنتِج معرفة معادلة لمعرفة الإله.

لقد كانت الفلسفة الديكارتية مُؤثِّرة كثيراً في المشروعات الـمُغَرَّبة للإنتاج المعرفي. فمفهوم عدم وجود المعرفة في مكان ما في فلسفة ديكارت فتح الباب أمام السياسات الجغرافية للمعرفة "أنا" التي اتَّخذت نفسها مُنتِجةً للمعرفة من لا مكان. وفي هذا السياق، برهن الفيلسوف الكولومبي سانتياكو كاسترو-كوميز Santiago Castro-Gomez على أن الفلسفة الديكارتية تفترض نظرية معرفية تبتدئ من نقطة الصفر؛ أي إنها وجهة نظر لا تفترض نفسها كوجهة نظر.[١١] فأهمية ريني ديكارت بالنسبة لنظرية المعرفة الـمُغَرَّبة يمكن أن ترى بعد (٣٧٠) عاماً؛ إذ لا تزال الجامعات الـمُغَرَّبة تحمل في طياتها التراث

[11] Castro-Gomez, Santiago. *La Hybris del Punto Cero: Ciencia, Raza e Ilustración en la Nueva Granada (1750-1816)*, Bogotá: Editora Pontífica de la Universidad Javeriana, 2003.

الديكارتي بوصفه معياراً لصحة العلم والإنتاج المعرفي. وبالرغم من وجود نقّاد للفلسفة الديكارتية، فإنهم لا يزالون يستعملونها معياراً لتمييز العلم من غير العلم. ففصل "الذات عن الموضوع"، وفهم "الموضوعية" بأنها تبدو أشبه بـ"الحيادية"، وأسطورة الـ"أنا" التي تُنتِج معرفة حقانية غير مشروطة بالجسم أو المكان، وفكرة المعرفة بوصفها مُنتَجة عن طريق حوار أحادي من دون علاقات مع كائنات إنسانية أخرى، والعالمية التي فُهِمت بأنها متجاوزة لأيِّ خصوصية؛ كل هذه الأمور لا تزال تُعَدُّ معياراً للمعرفة الصحيحة والعلم المستخدم في تخصصات الجامعة الـمُغَرَّبة. وعلى هذا، فأيُّ معرفة تَدَّعي أنها مُتمثِّلة في الهيئات السياسية للمعرفة،[١٢] أو الجغرافية السياسية للمعرفة،[١٣] المخالفة لأسطورة المعرفة غير الحالَّة في مكان للأنا السياسية الديكارتية للمعرفة؛ هي معرفة منبوذة لأنها متحيزة، وغير صحيحة، وغير متصلة بالموضوع، وغير جادَّة؛ أي إنها معرفة دونية.

إن ما يختص به التراث الفكري للرجال الغربيين، الـمُدشَّن من الفلسفة الديكارتية، هو أنه شَكَّل حدثاً تاريخياً عالمياً؛ إذ لم يزعم أيُّ تراث للفكر -قبل ديكارت- إنتاج معرفة غير قائمة في مكان؛ أي معرفة مماثلة لمعرفة الإله، أو معادلة لها. وهذه العالمية الوثنية للتراث الفكري للرجال الغربيين، كما دُشِّن من ديكارت عام ١٦٧٣م،[١٤] زعمت أنها تَحُلُّ مَحَلَّ الإله، وتُنتِج معرفة مثل معرفة الإله. فالأسئلة "الداسلية" هي: ما الشروط الثقافية والتاريخية والاقتصادية والسياسية للإمكانية التي خوَّلَت شخصاً ما في منتصف القرن السابع عشر إنتاج فلسفة تَدَّعي أنها معادلة لمعرفة الإله وتَحُلُّ مَحَلَّه؟ مَن الذي يتحدث؟ مِن أيِّ هيئة سياسية للمعرفة، أو مِن أيِّ جغرافية سياسية للمعرفة يتكلم؟

يجيب داسل عن هذه الأسئلة بالحجة الآتية: عبارة ديكارت: "أنا أُفكِّر، إذن أنا موجود" سُبِقت بمئة وخمسين عاماً بعبارة: "أنا أَحتل، إذن أنا موجود". فالعبارة الأخيرة هي شرط الإمكانية لعبارة ديكارت. والادِّعاء المغرور الوثني -بحسب داسل- للفلسفة

---

[12] Anzaldúa, Gloria. *Borderlands/La Frontera: The New Mestiza*, San Francisco: Spinsters, Aunt Lute, 1987. See also:

- Fanon, Frantz. *Piel Negra, Máscara Blancas*, Madrid: AKAL, 2010.

[13] Dussel, Enrique. *Filosofía de Liberación*, México: Edicol, 1977.

[14] Descartes, *Discours de la Méthode*.

الديكارتية الـمُتمثِّل في أن العقل يُنتِج معرفة معادلة لمعرفة الإله، هو آتٍ من منظور شخص يَعُدُّ نفسه مركز العالم؛ لأنه تمكَّن من احتلاله قبل ذلك. فمن هذا الكائن؟ إنه -كما يراه داسل- الكائن الإمبريالي. فمقولة "أنا أَحتل" التي بدأت مع التوسع الاستعماري للرجال الأوروبيين عام ١٤٩٢م، هي الأساس، وشرط الإمكانية لمقولة "أنا أُفكِّر" التي عَلْمَنَتْ كلَّ صفات الإله المسيحي، وحَلَّتْ مَحَلَّهُ بوصفها أساساً جديداً للمعرفة؛ وذلك أنه عندما احتل هؤلاء الرجال العالم، أمكن التخلص من الإله بوصفه قاعدة أساسية للمعرفة. وبعد احتلال العالم، حقَّق الرجل الأوروبي "مماثلة" الإله في خصائصه؛ ما منحه الامتياز المعرفي.

وبالرغم من ذلك، توجد حلقة مفقودة بين عبارة "أنا أَحتل، إذن أنا موجود" وعبارة "أنا أُفكِّر، إذن أنا موجود"؛ إذ لا توجد ضرورة تلازمية لنستقي من العبارة الأولى العالميةَ الوثنية (معرفة معادلة لمعرفة الإله)، والعنصرية المعرفية، والتمييز الجنسي المعرفي (الدونية لكل المعارف الآتية من الكائنات الإنسانية الـمُصنَّفة بأنها غير غربية). فما يربط عبارة "أنا أَحتل، إذن أنا موجود" Ego Conquiro بالمعرفة الوثنية المعادلة لمعرفة الإله الـمُتمثِّلة في عبارة "أنا أُفكِّر، إذن أنا موجود" Ego Cogito، هو العنصرية المعرفية، والتمييز الجنسي المعرفي الناتج من عبارة "أنا أُبيد، إذن أنا موجود" Ego Extermino. إنه منطق الإبادة الجماعية البشرية والمعرفية معاً التي تتوسط بين "أنا أَحتل"، والعنصرية المعرفية، والتمييز الجنسي المعرفي لعبارة "أنا أُفكِّر" بوصفها أساساً جديداً للمعرفة في العالم الاستعماري الحديث. فعبارة "أنا أُبيد، إذن أنا موجود" هي الشرط البنيوي السوسيوتاريخي الذي جعل الربط ممكناً بين عبارتي: "أنا أَحتل، إذن أنا موجود"، و"أنا أُفكِّر، إذن أنا موجود".

سنناقش فيما يأتي مسألة مهمة، مفادها أن الإبادات الجماعية البشرية والمعرفية الأربع للقرن السادس عشر الطويل هي الشرط السوسيوتاريخي لإمكان التحوُّل من "أنا أَحتل، إذن أنا موجود" إلى العنصرية المعرفية والتمييز الجنسي المعرفي لـ"أنا أُفكِّر، إذن أنا موجود".

لقد كانت هذه الإبادات مُوجَّهةً إلى المسلمين واليهود في أثناء احتلال الأندلس، وحملت اسم نقاء الدم. وهو ما تعرَّضت له الشعوب الأصلية في الأمريكتين، ثم في آسيا، وكذا الأفارقة الذين عانوا تجارة الأسرى والاستعباد في الأمريكتين، فضلاً عن النساء اللاتي مارسن المعرفة الهندوأوروبية ونقلنها إلى أوروبا؛ إذ حُرِقْنَ أحياءً بدعوى ممارستهن السحر. وقد نوقشت هذه الإبادات الجماعية البشرية والمعرفية الأربع مِراراً بوصفها أفعالاً ينفصل بعضها عن بعض. وما نرومه هنا هو رؤيتها على نحوٍ متسلسل متصل بعضه ببعض، ورؤيتها أيضاً بوصفها تأسيساً لِبنى المعرفة في العالم الاستعماري الحديث. والحقيقة أن هذه الإبادات الجماعية كانت -في الوقت نفسه- صوراً للإبادة المعرفية التي هي تأسيس لامتياز معرفي للرجال الغربيين. ولكي نُثبِت هذه الحجة؛ فإننا لا نحتاج إلى الغوص في التاريخ فحسب، بل نحتاج إلى شرح كيف ظهرت العنصرية، وتحديد زمن هذا الظهور.

ثانياً: احتلال الأندلس (الإبادة الجماعية البشرية والمعرفية للمسلمين واليهود)

كان الاحتلال الأخير للأندلس أواخر القرن الخامس عشر، وحمل شعار "نقاء الدم". لقد مثَّل هذا الاحتلال خطاباً عنصرياً أولياً مُناهِضاً للسكان المسلمين واليهود إبّان احتلال الحكومة الملكية الكاثوليكية الاستعمارية للإقليم الأندلسي؛ بغية هدم سلطنة غرناطة التي كانت آخر سلطة سياسية مسلمة في الجزيرة الأيبيرية.[١٥] وقد تسبَّب التطهير العرقي بالإقليم في إبادة جماعية بشرية ومعرفية للمسلمين واليهود. فاليهود والمسلمون الذين بقوا في الإقليم كانوا بين خيارين: القتل (إبادة بشرية)، أو اعتناق المسيحية كَرْهاً (إبادة معرفية).

وتحقَّق هذا التطهير العرقي بارتكاب الإبادتين الجماعيتين (البشرية، والمعرفية) الآتيتين:

[15] Maldonado-Torres, Nelson. "Religion, Conquête et Race dans la Fondation du monde Moderne/Colonial", In: *Islamophobie dans le Monde Moderne*, Edited by Mohamed Mestiri, Ramon Grosfoguel and El Yamine Soum, Paris: IIIT, 2008a, pp.205-238.

أ. أدَّى الطرد القسري للمسلمين واليهود من أرضهم (الإبادة الجماعية البشرية) إلى إعادة إعمار الإقليم بسكان مسيحيين من شمال الجزيرة الأيبيرية.[16] وهذا يُعرَف اليوم في الأدب باسم الاستعمار الاستيطاني.

ب. أدَّى الدمار الهائل للروحية الإسلامية واليهودية (بعد الإبادة الجماعية البشرية) إلى تخلّي كلٍّ من المسلمين واليهود -الذين قرَّروا البقاء في الإقليم- عن دينهم قسراً (الإبادة الجماعية المعرفية).[17] وبتحويل المسلمين إلى موريسكيين (المسلمون المتحولون إلى المسيحية)، واليهود إلى "موارنة"* (اليهود المتنصرون)، تمَّ هَدْمُ ذاكرتهم ومعرفتهم وقيمهم الروحية (الإبادة الجماعية المعرفية). وقد نُظِر إلى هذا الهدم بوصفه الكفيل والضامن لميلاد جيلٍ مسيحي من سلالة المارونيين والمغاربة، مُنسلِخٍ انسلاخاً كاملاً عن أيِّ أثر يربطه بأسلافه.

لقد استُخدِم خطاب "نقاء الدم" من لدن الدولة الإسبانية لمراقبة السكان المسلمين واليهود الذين نجوا من المجازر، وكان ثمن النجاة والبقاء في الإقليم إكراههم على اعتناق المسيحية.[18] ولم يقتصر الأمر على ذلك، فقد عمَدت الحكومة الملكية المسيحية إلى

[16] Caro Baroja, Julio. *Los moriscos del Reino de Granada*, Madrid: Ediciones Istmo, 1991. See also:

- Carrasco, Rafael. *Deportados en nombre de Dios: La explusión de los moriscos cuarto centenario de una ignominia*, Barcelona: Ediciones Destino, 2009.

[17] Barrios Aguilera, Manuel. *La suerte de los vencidos: Estudios y reflexiones sobre la cuestión morisca*, Granada: Universidad de Granada, 2009. See also:

- Kettami, Ali. *El resurgir del Islam en Al-Ándalus*, Barcelona: Abadia Editors, 2012.

* لا يقصد الباحث بالموارنة هنا الفرقة الدينية التابعة للكنسية المارونية والتي تستقر في سواحل بلاد الشام وخاصة في لبنان. وإنما هو مصطلح أطلق على اليهود المتنصرين في إسبانيا. فقد خيَّرت الحكومة الأسبانية المسيحية اليهود إما بالطرد من إمارتي قشتالة وأراجون أو بالتنصر، فخرج منهم نحو ٨٠.٠٠٠ يهودي إلى المغرب والبرتغال وهولندا وإيطاليا والبوسنة واليونان وإسطنبول ومصر والشام وسموا بال"سفارديم"، أما اليهود الذين فضَّلوا البقاء والتنصر فقد سموا بالموارنة أي النصارى الجدد الذي ينحدرون من أصول يهودية؛ بينما سمي النصارى الجدد المنحدرين من أصول إسلامية بالموريسكيين. (المترجم)

[18] Galán Sánchez, Ángel. *Una sociedad en transición: Los granadinos de mudéjares a moriscos*, Granada: Universidad de Granada, 2010.

مراقبة هؤلاء للتحقُّق من صحة اعتناقهم المسيحية. أمَّا أصل الخطاب الآنف الذكر فهو "شجرة العائلة" الخاصة بالسكان، التي زوَّدت سلطات الدولة بما يَلزم لمعرفة إذا كان السلف (فرداً، أو عائلةً) مسيحياً بصورة محضة، أو غير مسيحي في حال كان متحولاً إلى المسيحية. ولم يحفل خطاب "نقاء الدم" -في تلك الحقبة- بإنسانية الضحايا، بل كان همُّه الأول مراقبة السكان الذين لا ينحدرون من أصل مسيحي، وبيان مدى قُرْبهم من المسيحية أو بُعْدهم عنها؛ للتحقُّق من صحة اعتناقهم.

لقد كان المسلمون واليهود -في نظر الحكومة الملكية المسيحية القشتالية- بشراً يعبدون إلهاً خطأً، أو ينتمون إلى دين غير صحيح. وكان يُنظَر إليهم بوصفهم طابوراً خامساً للسلطنة العثمانية في الجزيرة الأيبيرية.[١٩] ولهذا السبب، استُعمِلت الخطابات التمييزية الدينية القديمة في العصور الوسطى الأوروبية، مثل الخطابات القديمة المعادية للسامية (الرهاب اليهودي Jewphobia ، أو الرهاب الإسلامي Islamophobia)، ضد اليهود والمسلمين عند احتلال الأندلس.

ومن المهم تأكيد أنه ما دام المجال مفتوحاً للحوار، فإن التمييز الديني القديم المعادي للسامية في القرون الوسطى الأوروبية، الذي مارسته الحكومة الملكية المسيحية القشتالية (أواخر القرن الخامس عشر)، لا يمكن اعتباره عنصرياً؛* لأنه شمل المسلمين واليهود معاً ضمن العرق السامي.[٢٠] وما دام المسلمون واليهود قد اعتنقوا المسيحية، فهذا يعني أن

---

[19] Martín Casares, Aurelia. *La esclavitud en la Granada del Siglo XVI*, Granada: Universidad de Granada y Diputación Provincial de Granada, 2000. See also:

- Carrasco, *Deportados en nombre de Dios: La explusión de los moriscos cuarto centenario de una ignominia.*

- Galán Sánchez, *Una sociedad en transición: Los granadinos de mudéjares a moriscos.*

* لأن التمييز الديني في هذه المرحلة، اعتبر اليهود والمسلمين معا ضمن العرق السامي، بينما بعد الحرب العالمية تم اختزال "المعاداة للسامية" في العرق اليهودي فقط، وتم إقصاء المسلمين من العرق السامي. (المترجم)

[٢٠] أقصى الأدب الاستشراقي الصهيوني الإسرائيلي، والأمريكي الشمالي، والأوروبي الغربي الحداثي العربَ من الجنس السامي بعد الحرب العالمية الثانية، واختزل تعريف "معاداة السامية" في التمييز العنصري ضد اليهود. ويُعَدُّ هذا الأخير جزءاً من استراتيجية صهيونية جائرة تهدف إلى خلط النقد العربي المسلم بالصهيونية بوصفها مُعادِلة لمعاداة السامية. انظر:

أبواب الاندماج كانت مفتوحة بعد احتلال الحكومة الملكية الإسبانية للأندلس في القرون الوسطى.[21] وفي هذا السياق، لم تكن إنسانية الضحايا تَطرح أيَّ إشكال، وإنما المهم هو الهوية الدينية للموضوعات الاجتماعية؛ فقد ارتبط التصنيف الاجتماعي السائد في ذلك الوقت بالسؤال اللاهوتي عن وجود إله خطأ أو دين خطأ، لترصيف المجتمع بمحاذاة الخطوط الدينية.

فالأمر المهم هنا -باختصار- هو أن خطاب "نقاء الدم" الذي استُخدِم في احتلال الأندلس، كان شكلاً من أشكال التمييز الديني الذي لم يكن عنصرياً بصورة كاملة؛ لأنه لم يسأل مطولاً عن إنسانية ضحاياه.

ثالثاً: احتلال الأمريكتين وعلاقته باحتلال الأندلس (الإبادة الجماعية البشرية والمعرفية للشعوب الأصلية، والمارونيين، والموريسكيين، والأفارقة)

عندما قَدَّم كريستوفر كولومبس -أوَّلَ مَرَّةٍ- الوثيقةَ المعروفةَ بالمشروع الهندي إلى ملك الحكومة الملكية المسيحية القشتالية وملكتها، فإنهما أعلنا قبوله، مع تأجيل تنفيذه إلى ما بعد احتلال الإقليم (الأندلس) كاملاً، وقد أمرا كولومبس أنْ ينتظر إلى أنْ يتم الاحتلال الأخير لمملكة غرناطة بوصفها السلطة الأخيرة في الجزيرة الأيبيرية. وقد كانت فكرة الحكومة آنذاك هي توحيد الإقليم وإخضاعه كاملاً لسيادتها؛ بإنشاء دولة واحدة ذات هوية واحدة، وديانة واحدة، في مقابل الأندلس التي كانت تشتمل في تلك الآونة على دول إسلامية متعددة (سلطنات)، مع الاعتراف بحقوق "الهويات والروحانيات المتعددة داخل الحدود الإقليمية."[22]

- Grosfoguel, Ramon, "Human Rights and Anti-Semitism After Gaza" *Human Architecture: Journal of the Sociology of Self-Knowledge*, Spring 2009, Vol. VII, issue No.2, pp.89-101.

[21] Galán Sánchez, *Una sociedad en transición: Los granadinos de mudéjares a moriscos*. See also:

- Dominguez Ortiz, Antonio, *Moriscos: la mirada de un historiador*, Granada: Universidad de Granada, 2009.

[22] Maíllo Salgado, Felipe, *De la desaparición de Al-Andalus*, Madrid: Abada Editores, 2004. See also:

وكان مشروع الحكومة هذا، المُتمثِّل في إيجاد توافُق بين هوية الدولة وهوية السكان داخل حدودها الإقليمية، هو أصل فكرة الدولة القومية في أوروبا. فالهدف الرئيس الذي أعرب عنه الملك والملكة لكولومبس هو توحيد الإقليم كله تحت سلطة الحكومة الملكية المسيحية أولاً قبل الذهاب خارجاً لاحتلال أراضٍ أخرى وراء الجزيرة الأيبيرية.

وقد تَمَّ إنهاءُ الاحتلال الأخير للسلطة السياسية المسلمة في الجزيرة الأيبيرية في الثاني من شهر يناير عام ١٤٩٢م، باستسلام إمارة بني نصر الغرناطية. وبعد مرور تسعة أيام فقط، وتحديداً في الحادي عشر من شهر يناير عام ١٤٩٢م، التقى كولومبس مَرَّة أخرى بالملكة إيزابيث، ولكن اللقاء عُقِد هذه المَرَّة في قصر بني نصر (الحمراء) بغرناطة، حيث حصل كولومبس على الترخيص الملكي والموارد للقيام برحلته الأولى إلى ما وراء البحار. وبعد مُضِيٍّ عشرة أشهر فقط، وتحديداً في الثاني عشر من شهر أكتوبر عام ١٤٩٢م، وصل كولومبس إلى الشواطئ التي سمّاها جزر الهند الغربية؛ إذ اعتقد -مُخطِئاً- أنه وصل إلى الهند.

لقد بُحِثت العلاقة بين احتلال الأندلس واحتلال الأمريكتين بصورة غير كافية في الأدب، وقد أُسقِطت فيها على احتلال الأمريكتين أساليب الاستعمار والهيمنة نفسها التي تعرَّضت لها الأندلس.[٢٣] فقد كان احتلال الأندلس مُهِمّاً جداً في أذهان المحتلين الأسبان، حتى إن هرنان كورتيز Hernan Cortes المحتل للمكسيك، خَلَطَ بين المعابد المقدسة الأزتيكية والمساجد، ولم يستطع التمييز بينها.*

وإضافةً إلى الإبادة الجماعية البشرية لأهل الأندلس، تعرَّض الإقليم أيضاً لإبادة معرفية، وكان حرْق المكتبات -مثلاً- من الوسائل الأساسية لاحتلاله؛ ففي القرن الثالث عشر الميلادي، أُحرِقت مكتبة قرطبة التي كانت تحوي أكثر من خمسمئة ألف كتاب، في

- Kettami, *El resurgir del Islam en Al-Ándalus*.

[23] Garrido Aranda, Antonio, *Moriscos e Indios: Precedentes Hispánicos de la Evangelización de México*, México: Universidad Nacional Autónoma de México, 1980.

* عومِل الهنود الحمر بوصفهم مسلمين. (المترجم)

حين كانت أكبر مكتبة مسيحية أوروبية لا تحوي أكثر من ألف كتاب. وقد لاقت العديد من المكتبات الأخرى المصير نفسه إبّان احتلال الأندلس، وكان آخرها حرْق ما يزيد على خمسين ومئتي ألف كتاب من مكتبة غرناطة على يد الكاردينال سيسنيروس Cisneros أوائل القرن السادس عشر. وقد استُخدِمت هذه الوسائل نفسها عند احتلال الأمريكتين، فأُحرِقت آلاف النسخ من مخطوطات الشعوب الأصلية التي كانت تُمثِّل ممارسة مكتوبة استعملها الهنود الحمر لأرشفة المعرفة؛ ما أدَّى إلى تدمير معارف هذه الشعوب في الأمريكتين. وبهذا، سارت الإبادة الجماعية البشرية والمعرفية جنباً إلى جنب في أثناء احتلال الأمريكتين والأندلس.

وتعرَّضت الشعوب الأصلية في الأمريكتين أيضاً لعملية تبشير واسعة شبيهة بما حدث في الأندلس؛[٢٤] إذ استُخدِمت فيها أساليب التنصير ذاتها التي خضع لها المسلمون في الجزيرة الأيبيرية، فكانت صورة من صور الإبادة الجماعية الروحية والمعرفية في آنٍ معاً.[٢٥] وعلى هذا، فقد سار تدمير المعرفة والروحانيات جنباً إلى جنب في أثناء احتلال الأمريكتين والأندلس.

ومن المهم جداً إدراك كيف أثَّر احتلال الأمريكتين في صور التمييز الديني القديمة - في العصور الوسطى- التي تعرَّض لها الموريسكيون والموارنة في القرن السادس عشر بإسبانيا. فقد أسهم احتلال الأمريكتين في جعلها بؤرةً للأحداث، ومركزاً للخطابات الجديدة، وأنموذجاً لأشكال السيطرة التي ظهرت في القرن السادس عشر مع بروز نظام الاستعمار العالمي الحديث. ويُعَدُّ إسهام نيلسون مالدونادو توريس حاسماً في هذا المقام حين قال: "إن القرن السادس عشر حوَّل الأشكال القديمة للتصنيف الاجتماعي الإمبريالي الذي وُجِد منذ القرن الرابع، عندما غَدَتِ المسيحية -مع قسطنطين-

[24] Garrido Aranda, *Moriscos e Indios: Precedentes Hispánicos de la Evangelización de México*. See also:
- Martín de la Hoz, Juan Carlos. *El Islam y España*, Madrid: RIALP, 2010.

[25] Garrido Aranda, *Moriscos e Indios: Precedentes Hispánicos de la Evangelización de México*.

الأيديولوجيةَ المهيمنة للإمبراطورية الرومانية." وقد أشار إلى ذلك، قائلاً: "تغيَّرت بشكل كبير في القرن السادس عشر الميلادي، الإحداثياتُ المفهومية التي عَرَّفَت القتالَ لصالح الإمبراطورية، وأشكالَ التصنيف الاجتماعي للقرن الرابع والقرون التي تلته قبل اكتشاف الأمريكتين واحتلالهما. فقد كانت العلاقة بين الدين والإمبراطورية في مركز التحوُّل الدراماتيكي من نظام السلطة الـمُعتمِد على الاختلافات الدينية إلى نظام مُعتمِد على اختلافات عرقية. ولهذا السبب، فلن تكون المعرفة الإنسانية المسيطرة، في نظر الحداثة، محددة بالتوتر والتعاون المتبادل بين فكرة الدين والرؤية الإمبريالية للعالم المعروف فحسب، لكنها، بدقة أكثر، ستُعرَّف عبر العلاقة الديناميكية بين الإمبراطورية والدين والعرق. فقد لعبت أفكار حول العرق والدين والإمبراطورية دوراً كبيراً باعتبارها محاور مهمة في تصوُّر العالم الاستعماري الحديث الناشئ... ."[٢٦]

إذن، فاحتلال الشعوب الأصلية في الأمريكتين أفضى إلى نشوء تصوُّر عنصري جديد، وسلطة عنصرية ألقت بظلالها على ساكني الجزيرة الأيبيرية في القرن السادس عشر. وما يهمنا هنا هو وصف اللحظة التي حَطَّ فيها كولومبوس الرِّحال من سفينته بعد شهور من الإبحار في المحيط الأطلسي، فقد كتب في يومياته في الثاني عشر من شهر أكتوبر عام ١٤٩٢م ما يأتي:

"يبدو لي أنهم شعوب فقيرة جداً في كل شيء؛ فهم يتجوَّلون عراة كما ولدتهم أمهاتهم... سوف يكونون عبيداً جيدين وموهوبين؛ فقد لاحظت أنهم ينصاعون بسرعة لما يقال لهم. وأعتقد أنهم سوف يصبحون مسيحيين بسهولة، حيث تبيَّن لي أنهم لا ينتمون لأيِّ طائفة دينية."

وقد تسبَّب هذا القول في نشوب مناظرة استمرت طوال السنوات الستين اللاحقة (١٤٩٢م-١٥٥٢م)؛ إذ برهن نيلسون مالدونادو توريس -أواخر القرن الخامس عشر- على أن مقولة كولومبس "شعوب لا تنتمي لأيِّ طائفة دينية" تعني شيئاً جديداً، وتحمل

[26] Maldonado-Torres, *Religion, Conquête et Race dans la Fondation du monde Moderne/Colonial*, p.230.

دلالة خاصة بالتصوُّر المسيحي وقتئذٍ، تختلف عن دلالتها اليوم التي تعني شعوباً ملحدةً.[٢٧] ففي تلك الحقبة، كان التصوُّر المسيحي السائد هو وجود دين للبشر جميعاً، وأنهم قد يعبدون إلهاً آخرَ، أو آلهةً متعددةً، ولا يألون جهداً في سبيل الدفاع عنها، حتى لو تسبَّب ذلك في نشوب حروب وصراعات عدَّة. غير أن إنسانية الآخر -بوصفها نزعةً وصورةً من صور السيطرة- لم تكن موضع سؤال بعدُ. فالذي كان مثار التساؤل هو علم لاهوت "الآخر". وهذا الأخير عُدِّلَ بصورة جذرية بعد عام ١٤٩٢م، مع احتلال الأمريكتين، ووصْف كولومبس الشعوب الأصلية بأنها شعوب لا دين لها. صحيح أن القراءة المعاصرة لهذه الوصف قد تجعلنا نعتقد أن كولومبس قصد بذلك الشعوب الملحدة، بيد أن عدم الإيمان بدين ما في المعتقد المسيحي آنذاك كان معادلاً لعدم وجود روح؛ ما يعني أن أفراد هذه الشعوب مُجرَّدون من صفة الإنسانية. وفي ذلك، يقول نيلسون مالدونادو توريس: "اعتبار الشعوب الأصلية بشراً بدون دين، هذا يخرجها من النوع الإنساني. فالدين عالمي بين الإنسانية، لكن الحرمان المزعوم منه بين الشعوب الأصلية لا يشير مبدئياً إلى عدم صحة هذا التقرير، لكن الأولى هو العكس، حيث يوجد هناك أشخاص في العالم ليسوا بشراً على وجه أكمل... يُقدِّم تأكيد كولومبس على فقدان الدين لدى الشعوب الأصلية معنىً أنثروبولوجياً إلى المصطلح. وفي ضوء ما رأينا هنا، فمن الضروري أن نضيف أن هذا المعنى الأنثروبولوجي هو أيضاً مرتبط بطريقة حديثة لتصنيف الإنسانية تصنيفاً عنصرياً. فبضربة واحدة، أخذ كولومبس الخطاب الديني من حقل لاهوتي إلى أنثروبولوجيا فلسفية حديثة تُميِّز بين درجات مختلفة من الإنسانية عبر هويات مرتبطة بما سيُطلَق عليه فيما بعد بالأعراق."[٢٨]

فخلافاً للمعنى المعاصر المتداول، لم تكن عنصرية اللون هي الخطاب العنصري الأول، وإنما كانت العنصرية الدينية ("شعوب لها دين" في مقابل "شعوب من دون دين"، أو "شعوب لها روح" في مقابل "شعوب من دون روح") هي العلامة الأولى للعنصرية في

[27] Maldonado-Torres, *Religion, Conquête et Race dans la Fondation du monde Moderne/Colonial*, p.230.

[28] Ibid, p.217.

نظام الاستعمار العالمي الحديث/ المسيحي المركزي الحداثي/ الغربي المركزي الذكوري/ الرأسمالي المُتشكِّل في القرن السادس عشر الطويل.[٢٩] لقد تمَّت صياغة تعريف "شعوب من دون دين" في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر في إسبانيا، حيث كانت المناظرة المطروحة خلال احتلال الأمريكتين تعرض لقضية الشعوب غير الدينية التي عُثِر عليها في رحلات كولومبس، وما إذا كان أفرادها يملكون روحاً أم لا. وكان منطق الحجة في النقاش هو: إذا لم يكن لديك دين فليس لديك إله، وإذا لم يكن لديك إله فليست لديك روح، وإذا لم تكن لديك روح فلسْتَ بشراً، وإنما أنتَ حيوان.

لقد حوَّلت هذه المناظرة العنصرية الاستعمارية مفهوم "شعوب من دون دين" إلى "شعوب من دون روح"، وأنتجت أثراً انعكاسياً أعاد التعريف، وغيَّر التصوُّر المسيطر على تلك الأزمنة والخطابات التمييزية الدينية في القرون الوسطى. فقد اكتسب مفهوم "نقاء الدم" معنىً جديداً؛ إذ لم يعد هذا المفهوم يُمثِّل شيفرة السلطة وعينها التي تراقب الأشخاص المنحدرين من أصول مسلمة أو يهودية للتحقُّق من صحة اعتناقهم للمسيحية، كما كان عليه الحال بعد احتلال الأندلس في القرن الخامس عشر، وإنما انتقل معناه -بعد احتلال الأمريكتين، وظهور مفهوم "شعوب من دون روح"- من سؤال لاهوتي عن وجود دين منحرف إلى سؤال عن إنسانية مَن يؤمنون به.[٣٠]

ونتيجة لذلك؛ فقد كانت المناظرة المشهورة في العقود الخمسة الأولى للقرن السادس عشر تتمحور حول مسألة وجود روح للهنود أم لا. أمَّا من حيث الممارسة، فإن الكنيسة والدولة الإمبريالية الإسبانية كانتا -قبل ذلك- تستعبدان معاً الشعوب الأصلية بصورة

---

[29] Grosfoguel, Ramón. "Decolonizing Post-Colonial Studies and Paradigms of Political Economy: Transmodernity, De-colonial Thinking and Global Coloniality", Vol. 1, No.1, *Transmodernity: Journal of Peripheral Cultural Production of the Luso-Hispanic World*, 2011, pp.1-38.

[٣٠] من المفيد تذكُّر أن اللغة اللاتينية كانت هي لغة الكتابة في القرن السادس عشر في أوروبا. ولـمَّا كانت الكنيسة المسيحية تُشكِّل سلطة المعرفة مُمَثَّلةً بعلم اللاهوت المسيحي، فقد انتقلت المناظرات المتعلقة باحتلال الأمريكتين في إسبانيا إلى أقاليم أوروبية أخرى عن طريق شبكات الكنيسة. وبهذا قُرِئت جميع المناظرات (المناظرات التي دارت حول كولومبس، ومناظرات علماء اللاهوت الإسبان عن العالم الجديد، وعن الأشخاص الذين عاشوا فيه) بحذر شديد في أجزاء أخرى من أوروبا.

مُفزِعة، على أساس مبدأ "لا روح للهنود". وعلى هذا، لم تكن عنصرية الدولة تُمثِّل ظاهرةً ما بعد القرن الثامن عشر، وإنما كانت ظاهرة تابعة لاحتلال الأمريكتين في القرن السادس عشر. وفي المقابل، فقد وُجِدت أصوات نقدية داخل الكنيسة تستهجن هذه الفكرة، وترى أن الهنود يملكون روحاً، لكنهم متوحشون، وبحاجة إلى التنصُّر.[٣١] وزعمت هذه الأصوات أن وجود روح للهنود يجعل استعبادهم خطيئة في عين الإله، وأن مهمة الكنيسة هي تنصيرهم باستخدام طرائق سلمية. لقد كانت هذه المناظرة هي أُولى المناظرات العنصرية في تاريخ العالم، وكان الهندي من حيث الهوية هو الهوية الحديثة الأولى.

لقد أفضت فئة "الهندي" إلى ابتكار هوية استعمارية حديثة جانسَتِ الهويات المتنوعة التي وُجِدَت في الأمريكتين قبل وصول الأوروبيين. ومن المهم تذكُّر أن كولومبس اعتقد أنه وصل الهند، وأن ذلك قاده إلى استخدام مصطلح "هندي" إشارةً إلى سكان البلاد الأصليين. ولاستدراك هذا الخطأ الجغرافي الأوروبي المركزي، فقد ظهر مصطلح "الهندي" للدلالة على الهوية الجديدة. غير أن إثارة سؤال عن روح الهنود (هل لديهم روح أم لا؟) في ذلك الوقت كان يُعَدُّ سؤالاً عنصرياً يؤدي مباشرةً إلى السؤال عن إنسانيتهم.[٣٢]

يتبيَّن ممّا سبق أن لهذه المناظرة آثاراً مهمةً في التصوُّر المسيحي في القرن السادس عشر، وأنها شكَّلت منعطفاً جديداً في تغيُّر الممارسات والخطابات التمييزية الدينية الأوروبية القديمة في القرون الوسطى. فحتى نهاية القرن الخامس عشر، كانت الخطابات "الإسلاموفوبية" و"اليهودوفوبية" القديمة مرتبطة بالحديث عن وجود إله "خطأ"، وعلم

---

31 Dussel, Enrique. *El episcopado latinoamericano y la liberación de los pobres*, (1504-1620) , 1979 ; Dussel, Historia de la Iglesia en América Latina: Medio Milenio de Coloniaje y Liberación, Madrid, Spain: Mundo Negro-Esquila Misional, 1992

٣٢ هذه النزعة الشكية في إنسانية الكائنات الإنسانية الأخرى سمّاها نيلسون مالدونادو- توريس النزعة الشكية الكارهة للبشر. انظر:

- Maldonado-Torres, Nelson. *Against War*, Durham and London: Duke University Press, 2008.

لاهوت غير صحيح، وتأثير الشيطان في الدين الخطأ، من دون السؤال عن إنسانية ممارسيه.[٣٣] وكان اعتناق المسيحية أمراً ممكناً لضحايا هذه الخطابات التمييزية. بيد أن استعمار الأمريكتين غيَّر سريعاً هذه الخطابات الدينية التمييزية القديمة في القرون الوسطى، وحوَّلها إلى هيمنة عنصرية حديثة.

وبالرغم من أن مفردة "العرق" لم تكن مستعملة آنذاك، فإن المناظرة التي تناولت مسألة وجود روح للهنود كانت عنصرية بالمعنى المتداول للعنصرية العلمية في القرن التاسع عشر؛ فقد اتَّسمت هذه المناظرة اللاهوتية في القرن السادس عشر بنفس دلالة المناظرات العلموية في القرن التاسع عشر، التي تساءلت عن بنية الهنود (هل لديهم بنية بيولوجية إنسانية أم لا؟). لقد تمحور هذان النوعان من المناظرات حول إنسانية (أو حيوانية) الآخرين المُعبَّر عنها بالخطاب العنصري المُؤسَّسي للدول، مثل: الحكومة الملكية المسيحية القشتالية في القرن السادس عشر، أو الدول القومية الإمبريالية الأوروبية الغربية في القرن التاسع عشر. ومن ثَمَّ فقد أصبح هذا المنطق العنصري المُؤسَّسي المُتمثِّل في مقولة: "لا روح للهنود" في القرن السادس عشر، أو مقولة: "ليس للهنود بنية إنسانية" في القرن التاسع عشر؛ هو المبدأ المُنظِّم للقسمة الدولية في العمل والتراكم الرأسمالي على مستوى العالم.

لقد استمرت هذه المناظرة إلى حين محاكمة فالادوليد المشهورة في مدرسة سالامانكا عام ١٥٥٢م. ولمّا كانت الكنيسة وعلم اللاهوت المسيحي هما سلطتا المعرفة في تلك الآونة، فقد طرحت الحكومة الملكية المسيحية الإمبريالية الإسبانية سؤالاً على علماء اللاهوت المسيحيين، هو: هل كان للهنود روح أم لا؟ وقد مثَّل علماء اللاهوت آنذاك

[٣٣] بناءً على التصنيف الاجتماعي للنظام الاجتماعي، فقد ادَّعى مالدونادو- توريس وجود أفراد في السابق يتحدثون عن خطابات قد تكون محددة بوصفها خطابات عنصرية من وجهة نظر معاصرة. وبالرغم من ذلك، فإن تصنيف السكان الاجتماعي في القرون الوسطى الأوروبية لم يكن يعتمد على أيِّ تصنيف اجتماعي، وهذا يعني أن التصنيف لم يكن مُنظَّماً عن المنطق الاجتماعي المتعلق بالسؤال الجذري عن إنسانية الموضوعات الاجتماعية؛ فقد اعتمد تصنيف السكان الاجتماعي على المنطق الاجتماعي العنصري بعد عملية عام ١٤٩٢م، مع نشوء نظام العالم الاستعماري/ المسيحي المركزي الحداثي/ الغربي المسيحي الأبوي/ الرأسمالي. ولهذا السبب، فإن الحجة القائلة بظهور العنصرية في هذا المقال ترتبط بالنظام الاجتماعي العالمي بعد عام ١٤٩٢م، ولا ترتبط بالتصريحات الفردية القائلة بظهوره قبل هذا العام.

بارتولومي دي لاس كاساس Bartolomé de las Casas، وجينس سيبولفيدا Gines Sepulveda. فبعد مُضِيِّ ستين عاماً (١٤٩٢م-١٥٥٢م) من المناظرة، التمست الحكومة الملكية المسيحية الإمبريالية الإسبانية أخيراً من محكمة لاهوتية مسيحية أنْ تتخذ قراراً نهائياً بخصوص إنسانية هؤلاء الهنود أو حيوانيتهم.

وكما هو معلوم، فقد شارك جينس سيبولفيدا في مناظرة دافع فيها عن مقولة: "إن الهنود هم شعوب من دون روح"؛ ما يعني -من وجهة نظره- أنهم حيوانات يمكن استعبادها واستخدامها في العمل من دون ارتكاب أيِّ إثم في عين الإله. وللبرهنة على دونية الهنود، وأنهم دون مستوى البشر، فقد استخدم حجة رأسمالية حديثة، مفادها أن الهنود ليس لديهم أدنى إحساس بالملكية الخاصة، واقتصاديات الأسواق؛ لأنهم يُنتِجون بصورة جماعية، ويُوزِّعون الثروة عن طريق التبادل.

أمَّا بارتولومي دي لاس كاساس فرأى أن الهنود يملكون روحاً، لكنهم متوحشون وبحاجة إلى التنصُّر. وقد عَدَّ استعبادهم خطيئة في عين الإله، واقترح تنصيرهم. لقد مثَّلت مناظرة لاس كاساس وسيبولفيدا خطابين عنصريين رائدين (بيولوجي، ومعرفي) امتدت آثارهما ردحاً من الزمن، وشكَّلت عبئاً وضغطاً على السلطات الإمبريالية الغربية على مدار (٤٥٠) سنة بعد ذلك.

فالخطاب العنصري البيولوجي يُمثِّل العلمانية العلموية في القرن التاسع عشر للخطاب العنصري اللاهوتي لسيبولفيدا. فبعد تحوُّل سلطة المعرفة في الغرب من علم اللاهوت المسيحي إلى العلم الحديث -بعد مشروع عصر الأنوار في القرن الثامن عشر، والثورة الفرنسية- تحوَّل الخطاب العنصري اللاهوتي لسيبولفيدا، المُتمثِّل في عبارة: "شعوب من دون روح"، إلى خطاب عنصري بيولوجي: "شعوب من دون بنية إنسانية"، وذلك مع ظهور العلوم الطبيعية، ثم تحوَّل فيما بعدُ إلى: "شعوب من دون جينات إنسانية". وحدث الشيء نفسه مع خطاب لاس كاساس؛ إذ تحوَّل خطابه اللاهوتي (متوحشون بحاجة إلى التنصُّر) في القرن السادس عشر إلى خطاب عنصري معرفي أنثروبولوجي (شعوب بدائية بحاجة إلى التحضُّر)، وذلك مع ظهور العلوم الاجتماعية.

وكانت محاكمة فالادوليد Valladolid هي الأخرى محطَّ الأنظار، وذاع صيتها بين مختلف الأوساط مدَّة طويلة. صحيح أن رأي سيبولفيدا انتصر على المدى البعيد، غير أن لاس كاساس ربح الجولة على المدى القصير. وهكذا، قرَّرت الحكومة الملكية الإمبريالية الإسبانية أن للهنود روحاً، وأنهم أيضاً متوحشون، ولا بُدَّ من تنصيرهم؛ لذا كان معروفاً أن استعبادهم خطيئة في عين الإله. وهذا يعني ظاهرياً تحرير الهنود من القاعدة الاستعمارية الإسبانية، ولكن الواقع يشير إلى غير ذلك؛ فقد انتقل الهنود -بحسب التقسيم العالمي للشغل- من العمل الاستعبادي إلى العمل القسري المعروف باسم Encomienda (إحدى صور العمل القسري شبه الإقطاعي). ومنذ ذلك الحين، تأسست فكرة العرق والعنصرية بطريقة ممنهجة، بوصفها مبدأً منظماً للتقسيم الدولي للشغل، والتراكم الرأسمالي على مستوى العالم.

فبعد أنْ خضع الهنود لنظام المراقبة هذا Encomienda، جُلِبَ الأفارقة (صُنِّفوا سلفاً بأنهم شعوب من دون روح) إلى الأمريكتين ليحلوا مَحَلَّ الهنود في عمل الاستعباد. وكان يُنظَر إلى الأفارقة وقتئذٍ بوصفهم مسلمين، فطالهم التمييز العنصري الذي تعرَّض له المسلمون في القرن السادس عشر بإسبانيا. وتجدر الإشارة إلى أن قرار جلب هؤلاء "الأسرى" من إفريقيا لاستعبادهم في الأمريكتين كان متصلاً اتصالاً مباشراً بنتائج محاكمة فالادوليد عام ١٥٥٢م. وتأسيساً على ذلك، بدأت عمليات الاختطاف المنظمة وتجارة الأسرى من الأفارقة التي بلغَت أوجَها في السنوات الثلاثمئة اللاحقة، وأصبحت العنصرية الدينية -في ظل استعباد الأفارقة- مكتملة، أو مُعوَّضة تدريجياً بعنصرية اللون، وغدَت العنصرية والتمييز ضد السود المنطق التأسيسي المُهيكِل للعالم الاستعماري الحديث.

لقد شكَّل اختطاف الأفارقة واستعبادهم في الأمريكتين حدثاً تاريخياً عالمياً كبيراً؛ إذ مات كثير منهم في أثناء عملية الأَسر والنقل والاستعباد؛[٣٤] ما مثَّل إبادة جماعية بشرية ومعرفية كبيرة في آنٍ معاً. فقد مُنِع الأفارقة في الأمريكتين من التفكير، وأداء الصلاة،

[34] Nimako, Kwame and Willemsen, Glenn. *The Dutch Atlantic: Slavery, Abolition and Emancipation*, London: Pluto Press, 2011.

وممارسة علومهم الكونية ومعارفهم ورؤاهم للعالم؛ إذ خضعوا لسلطة العنصرية المعرفية التي حَظَرَتْ إنتاجهم المعرفي المستقل. وقد كانت الدونية المعرفية هي الحجة الحاسمة التي استُنِد إليها في إثبات أنهم أدنى من جنس الإنسان اجتماعياً وبيولوجياً. وبعد أنْ كانت هذه الفكرة العنصرية في أواخر القرن السادس عشر تفيد بأن الزنوج يفتقرون إلى الذكاء، أصبحت في القرن العشرين تفيد بأن الزنوج يتبوَّأون مستويات ضعيفة من حيث نسبة الذكاء.

أمَّا العنصرية الدينية التي تعرَّضت لها الشعوب الأصلية، والتي شكَّكت في إنسانيتها، فقد تمَّ تصديرها إلى الموريسكيين والمارونيين، في تساؤل عن إنسانية هؤلاء الذين يعبدون إلهاً مغايراً. لقد عُدّوا أشخاصاً من دون روح؛ أي ليسوا بشراً، أو هم أدنى من مرتبة البشر، فتعرَّضوا للطرد من حقل الإنسانية، شأنهم في ذلك شأن الشعوب الأصلية في الأمريكتين، ووُصِفوا بالحيوانية.[٣٥] وقد مثَّل ذلك تحوُّلاً جذرياً، في أثناء الظهور الجديد لأوروبا الحديثة، من دونية الديانات غير المسيحية (الإسلام، واليهودية) في أوروبا خلال القرون الوسطى، إلى دونية إنسانية الشعوب التي اعتنقت هذه الديانات (المسلمون، واليهود). ولهذا السبب، ونتيجةً لتأثير احتلال الأمريكتين في القرن السادس عشر؛ فإن التمييزالأوروبي الديني المعادي للسامية (اليهودوفوبي، والإسلاموفوبي) الذي يعود إلى الحملات الصليبية وما قبلها، تحوَّل إلى تمييز عرقي. وهذا هو أثر الكيد المرتد للاستعمار الذي عاد من جديد ليطارد أوروبا.

فالتداخل بين السلطة الدينية العالمية ذات المركزية المسيحية والسلطة الغربية المركزية العرقية/ العنصرية لنظام الاستعمار العالمي/ المسيحي المركزي الحداثي/ الغربي المركزي

[35] Perceval, José María. *Todos son uno. Arquetipos, xenofobia y racismo. La imagen delmorisco en la monarquía española durante los siglos XVI y XVII*, Almería: Instituto de Estudios Almerienses, 1997. See also:

- Perceval, José María. "Animalitos del señor: Aproximación a una teoría de las animalizaciones propias y del otro, sea enemigo o siervo, en la España imperial (1550-1650)", en Areas: Revista de Ciencias Sociales , *Universidad de Murcia*, No.14, pp.173-184.

الذكوري/ الرأسمالي الذي حدث بعد عام ١٤٩٢م؛ هو الذي حدَّد هوية الممارسين للروحية غير المسيحية لأنهم تعرَّضوا للعنصرية بوصفهم "كائنات" دون مرتبة الإنسان. وخلافاً للروايات الأورومركزية، ومنها رواية فوكو* foucault التي حَدَّدَت زمن التحوُّل من معاداة السامية الدينية إلى معاداة السامية العنصرية بالقرن التاسع عشر، وظهور العنصرية العلمية؛[٣٦] فإن العنصرية المعادية للسامية ظهرت في القرن السادس عشر بإسبانيا حين تداخل التمييز الديني المعادي للسامية في القرون الوسطى القديمة مع ظهور التصوُّر العرقي الحديث الناجم عن احتلال الأمريكتين. لقد حوَّل هذا التصوُّر معاداة السامية الدينية إلى معاداة سامية عرقية، خلافاً لما ذكره فوكو من أن العنصرية المعادية للسامية في القرن السادس عشر كانت مُؤسَّسة سلفاً بوصفها عنصرية بيوسياسية.[٣٧]

والحقيقة أن مفهوم "شعوب من دون روح" لم يصل الموريسكيين مباشرةً بعد احتلال الأمريكتين، وإنما استغرق ذلك عدَّة عقود من القرن السادس عشر؛ فقد تمَّ الانتقال والوصول بعد منتصف القرن السادس عشر. وتحديداً، في أثناء محاكمة البشرات،[٣٨] حيث

* يؤكد الباحث في كثير من دراساته على أن ميشيل فوكو يعتبر أحد أهم الكتاب الأورومركزيين الذين أسست على أيديهم بنية المعرفة الغربية. بالإضافة إلى ثلاثة كُتاب آخرين وهم: دريدا Derrida وغرامشي Gramsci وغوها Guha – الذين شكلوا جزءا من قانون الفكر الغربي ما بعد الحداثي، واصفا إياهم بفرسان الهلاك الأربعة The Four Horses of The Apocalypse. ويقصد بروايته هنا رؤيته لانتقال وتطور العنصرية من خلال كتابه جينيالوجيا العنصرية وغيرها، وهي أن العنصرية المعرفية جاءت نتيجة للعنصرية العرقية مع إضفاء معنى جديد عليها عند بروز الدولة الحديثة. خلافا للباحث الذي يرى أن العنصرية الدينية هي التي تحولت إلى عنصرية عرقية نتيجة تداخل السلطتين المركزية المسيحية والمركزية العرقية بعد احتلال الأمريكتين، ومن ثم ظهرت العنصرية المعرفية. (المترجم).

[36] Foucault, Michel. *Genealogía del racismo. La Plata, Argentina Colección Caronte Ensayos*, 1996.

[٣٧] لم يُقصَد بالعنصرية المعرفية في القرن السادس عشر –كما ناقش فوكولت– إعطاء خطاب "حرب العرق" الأوروبي القديم معنىً جديداً، وإنما هي علمانية العنصرية اللاهوتية الدينية القديمة لـ"شعوب من دون روح" في القرن السادس عشر. ولم يكن الخطاب القديم لـ"حرب العرق" داخل أوروبا تأسيساً للعنصرية العلمية كما أصرَّ على ذلك فوكولت بـ"سلالة العنصرية"؛ فقد كان تأسيس العنصرية العلمية مُمثِّلاً للعنصرية الدينية القديمة في القرن السادس عشر، مع وجود جذورها في الاستعمار الأوروبي للأمريكتين؛ إذ كان فوكولت غافلاً عن احتلال الأمريكتين، والاستعمار، وإسبانيا في القرن السادس عشر.

[٣٨] عُقِدت هذه المحاكمات للموريسكيين الذين انتفضوا في جبال البشرات، خارج مدينة غرناطة، بعد منتصف القرن السادس عشر.

وُصِف الموريسكيون بأنهم "شعوب من دون روح" sujetos desalmado، ثم استُعبِدوا بصورة كبيرة في غرناطة. وبالرغم من أن الكنيسة المسيحية حَظَرَت استعبادَ المسيحيين والناس المُعَمَّدِين بوصفهم مسيحيين، فإن الموريسكيين ظلوا مستعبدين.[٣٩]

يتبيَّن ممّا سبق أن مفهوم "نقاء الدم" كان متصلاً بمفهوم "شعوب من دون روح"؛ ما يجعل السؤال عن كيفية استيعابهم المسيحية غير متصل بالموضوع، بل إن وجودهم نفسه كان موضع سؤال يجعل إنسانيتهم أمراً مشكوكاً فيه. وهكذا، ومنذ ذلك الحين، لم يُعَدَّ هؤلاء مسيحيين حقيقيين، ولا مساوين لهم؛ ما يُؤكِّد أن العنصرية التي تعرَّض لها الموريسكيون كانت حادَّةً أواخر القرن السادس عشر، قبل طردهم بصورة جماعية من الجزيرة الأيبيرية عام ١٦٠٩م.[٤٠]

ختاماً، فإن احتلال الأمريكتين في القرن السادس عشر زاد من وتيرة الإبادة الجماعية البشرية والمعرفية، التي بدأت باحتلال الأندلس، ثم طالت فئات جديدة مثل الهنود الحمر والأفارقة، وزادت حدَّتها -في الوقت نفسه- بفرض المنطق العنصري الجديد على المسيحيين المنحدرين من الساكنة ذوي الأصول المسلمة واليهودية في إسبانيا.

رابعاً: استعباد النساء الهندوأوروبيات (الإبادة الجماعية البشرية والمعرفية للنساء)

إن الإبادة الجماعية البشرية والمعرفية الرابعة التي حدثت في القرن السادس عشر، والتي لا تربطها صلة كبيرة بتاريخ الإبادات الجماعية البشرية والمعرفية الثلاث الآنف

---

[39] Martín Casares, Galán Sánchez, *Una sociedad en transición: Los granadinos de mudéjares a moriscos.*

[40] Carrasco, *Deportados en nombre de Dios: La explusión de los moriscos cuarto centenario de una ignominia*. See also:

- Perceval, *Todos son uno. Arquetipos, xenofobia y racismo. La imagen delmorisco en la monarquía española durante los siglos XVI y XVII.*

- Perceval, *Animalitos del señor: Aproximación a una teoría de las animalizaciones propias y del otro, sea enemigo o siervo, en la España imperial (1550-1650)*, pp.173-184.

ذكرها،[٤١] كانت مُوجَّهةً إلى النساء في الأراضي الأوروبية اللواتي نقلْنَ المعرفة الهندوأوروبية من جيل إلى آخر. فقد أتقنت هؤلاء النسوة المعرفةَ المتوافرة للسكان الأصليين منذ الأزمنة القديمة، وشملت معرفتهن حقولاً معرفيةً مختلفة، مثل: علم الفلك، وعلم الطب، وعلم الأحياء، وعلم الأخلاق. وقد استقوَيْنَ بامتلاكهن المعرفة الموروثة، ودورهن القيادي داخل المجتمعات التي وُسِمت بطابع شبه الجماعية للمنظومة السياسية والاقتصادية. وقد بدأ اضطهاد هؤلاء النسوة منذ أواخر العصر الوسيط، لكنه أصبح حادّاً ومُكثَّفاً في القرنين: السادس عشر والسابع عشر، مع ظهور هياكل السلطة الأبوية الرأسمالية الاستعمارية الحديثة.

لقد أُحرِقَت ملايين النساء أحياءً بتهمة السحر والشعوذة في الحقبة الحديثة المبكرة. وبسبب السلطة والقيادة الممنوحة لهن؛ فقد مثَّل الهجوم عليهن استراتيجية رئيسة لتعزيز الذكورية المسيحية المركزية، وهدم الأشكال الطائفية المستقلة المتعلقة بملكية الأراضي. وكانت محاكم التفتيش في مقدمة هذا الهجوم، ووُجِّهَت الإدانة إلى آلاف النساء اللواتي هدَّدت استقلاليتُهن وقيادتُهن ومعرفتُهن علمَ اللاهوت المسيحي، والسلطة الكنسية، وكذا السلطة الأرستقراطية التي تحوَّلت إلى طبقة رأسمالية على امتداد الحدود الوطنية في المستعمرات، وفي الزراعة الأوروبية.[٤٢]

وتُؤكِّد سيلفيا فيديريسي Silvia Federici أن مطاردة هؤلاء "الساحرات" كانت في أوْجها ما بين عامي ١٥٥٠م و ١٦٥٠م، وقد تمثَّلت أطروحتها في أن مطاردة الساحرات على التراب الأوروبي كانت متصلة بالتراكم البدائي خلال التوسع الرأسمالي

---

[٤١] يُعَدُّ العمل الإبداعي لسيلفيا فيديريسي Silvia Federici واحداً من بين الأعمال الاستثنائية القليلة في هذا الموضوع. وبالرغم من أن عملها هذا لم يربط العمليات الأربع بالإبادة الجماعية الجسدية والثقافية، فإنه ربط -على الأقل- مطاردة النساء الساحرات في القرنين السادس عشر والسابع عشر باستعباد الأفارقة واحتلال الأمريكتين؛ في ارتباطهما بالتراكم الرأسمالي العالمي، وبخاصة التكوين المبكر للرأسمالية الذي يعني التراكم البدائي. فقد ركَّز عملها على الاقتصاد السياسي أكثر من تركيزه على بنى المعرفة. ومع ذلك، فإن إسهامها مهم حاسم لفهم علاقة الإبادة الجماعية البشرية والمعرفية للنساء بالإبادات الجماعية البشرية والمعرفية الأخرى في القرن السادس عشر.

[٤٢] لمعرفة تحليل هذا التحوُّل الأوروبي الأرستقراطي إلى طبقة رأسمالية في علاقة ذلك بتكوين نظام العالم الحديث، انظر:

- *The Modern World-System: Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy in the Sixteen Century*, New York: Academic Press, 1976.

المبكر في تكوين احتياطي الشغل للرأسمالية العالمية. لقد ربطَتْ سيلفيا استعباد الأفارقة في الأمريكتين بمطاردة النساء الساحرات في أوروبا بوصفهما وجهان لعملة واحدة؛ فالتراكم الرأسمالي عالمياً يتطلب دمج الشغل في عملية التراكم الرأسمالي. ولتحقيق هذا الهدف، استعملت المعاهد الرأسمالية أقصى أشكال العنف.[٤٣]

وخلافاً للإبادة المعرفية التي نزلت بالشعوب الأصلية والمسلمين، والتي أُحرِق فيها آلاف الكتب، فإن الإبادة المعرفية والبشرية للنساء الهندوأوروبيات كانت من نوع آخر؛ إذ لم توجد أيُّ كتب لإحراقها؛ لأن رواية المعرفة كانت تُنقَل من جيل إلى آخر عن طريق التراث الشفهي. ولمّا كانت أجساد هؤلاء النسوة أشبه بالكتب، فإن إحراق أجسادهن يُماثِل حرق كتب الأندلسيين والشعوب الأصلية.

خامساً: أثر الإبادات الجماعية البشرية والمعرفية الأربع في البنية العالمية للمعرفة (تكوين البنى المعرفية والجنسية والأمل في عالم مستقبلي مُتخَطٍّ للحداثة)

أفضت الإبادات الجماعية البشرية والمعرفية الأربع إلى نشوء سلطة أبوية/ عنصرية وبنى معرفية متداخلة مع عمليات التراكم الرأسمالي عالمياً. فعندما كتب ديكارت في القرن السابع عشر عبارته المشهورة: "أنا أُفكِّر، إذن أنا موجود" من أمستردام،[٤٤] لم يكن هذا "الأنا" -في المعنى المتداول في تلك الآونة- يُمثِّل شخصاً إفريقياً، أو واحداً من الشعوب الأصلية، أو مسلماً، أو يهودياً، أو امرأةً (غربية، أو غير غربية)، وإنما عُدَّ كلٌّ من هؤلاء -كما أسلفنا القول- دونياً ما دامت بنية السلطة الذكورية العنصرية العالمية موجودة، وعُدَّت معرفتهم أيضاً دونية بفعل تلك الإبادات الجماعية. وفي المقابل، فإن الذي عُدَّ أسمى معرفياً هو الرجل الغربي فقط؛ ففي المعنى المشترك المهيمن في ذلك الوقت، كان هذا

---

[43] Federici, Silvia, *Caliban and the Witch: Women, The Body and Primitive Accumulation*, New York: Autonomedia, 2004.

[٤٤] من المهم الإشارة إلى أنه بعد هزيمة الهولنديين للإسبان في حرب الثلاثين سنة، انتقل مركز نظام العالم الجديد -الذي استُحدِث بعد عام ١٤٩٢م في ظلِّ التوسُّع الإسباني في الأمريكتين- من الجزيرة الأيبيرية إلى أوروبا الغربية الشمالية (أمستردام). وما دام داسل يرى أن الفلسفة الديكارتية قد أنتجها شخص يحمل فكراً جيوسياسياً من مركز نظام العالم، فإن الوجود الإمبريالي ليس مجازياً.

"الأنـا" يُمثِّـل الـذَّكَر الغـربي. فالإبـادات الجماعيـة البشـرية والمعرفيـة الأربـع -إذن- هـي المُؤسِّسة لِلبنى المعرفية الجنسية والعنصرية التي أنتجت امتيازاً معرفياً وسلطةً للإنتاج المعرفي للرجل الغربي، وأنتجت أيضاً الدونية المعرفية لبقية الشعوب. وأكَّد مالدونادو توريس أن الجانب الآخر لعبارة: "أنا أُفكِّر، إذن أنا موجود" هو البنية الجنسية والعنصرية لعبارة: "أنا لا أُفكِّر، إذن أنا لست موجوداً". فهذه الأخيرة تُعبِّر عن استعمار الوجود؛ حيث إن كُلّاً مـن هـؤلاء الأشـخاص عُـدّوا دونيـين، لا يفكـرون، ولا يسـتحقون صـفة الوجـود؛ لأن إنسـانيتهم مـا تـزال موضـع سـؤال.[٤٥] إنهـم ينتمـون إلى منطقـة "اللاوجـود" بحسـب تعبـير فانون Fanon، أو إلى "الخارجانية" بحسب تعبير داسل.

لقـد اسـتبطنت الجامعـات الـمُغَرَّبة منـذ نشـأتها البـنى المعرفيـة الجنسـية والعنصـرية الـتي أنتجتهـا الإبـادات الجماعيـة البشـرية والمعرفيـة الأربـع؛ إذ أصـبحت هـذه البـنى الأوروMركزية للمعرفة أمراً بدهياً، ورأت أنه من الطبيعي والفاعل أن تضم الجامعة الـمُغَرَّبة ذكوراً غربيين مـن خمـس دول فقـط، يحتكـرون إنتـاج قـوانين الفكـر في كـل التخصصـات الأكاديميـة للجامعة. فلا مُشاحَّة في هذا الأمر؛ لأن اختيار هؤلاء كان نتيجةَ انعكاسٍ للبنى المعرفية الجنسية والعنصرية الطبيعية للعالم الاستعماري الحديث.

ومـا إنْ تحوَّلـت الجامعـة الـمُغَرَّبة في أواخـر القـرن الثـامن عشـر مـن جامعـة لاهوتيـة مسـيحية إلى جامعــة همبولتيــة Humboldtian علمانيــة، حــتى اسْــتَعْمَلَت الفكــرةَ الأنثروبولوجيـة الكانطيـة القائلـة بـأن العقلانيـة تجسَّـدت في الرجـل الأبـيض شمـال جبـال بيرنييـه Pyrenees، مُصـنِّفةً بـذلك الجزيـرة الأيبيريـة ضـمن مجـال العـالم اللاعقـلاني مـع الشعوب السود والحمر والصفر. لقد عانت الشعوب "المفتقرة إلى العقلانية" إقصاءً معرفياً من بنى معرفة الجامعة الـمُغَرَّبة. وانطلاقاً من هذا الافتراض الكانطي، أُسِّس قانون الفكر للجامعة الـمُغَرَّبة المعاصرة.

وعنـدما انتقـل مركـز نظـام العـالم مـن الجزيـرة الأيبيريـة إلى أوروبـا الشـمالية الغربيـة في منتصـف القـرن السـابع عشـر بعـد حـرب الثلاثـين سـنة، وتحديـداً حـين هـزم الهولنـديون

[45] Maldonado-Torres, *Against War.*

الإسبان في معركة أرمادا Armada، انتقل الامتياز المعرفي مع السلطة النظامية من إمبراطوريات الجزيرة الأيبيرية إلى الإمبراطوريات الأوروبية الشمالية الغربية. وما رأي كانط الأنثروبولوجي العنصري، الذي جعل جبال بيرنييه تبدو أشبه بخط فاصل داخل أوروبا لتحديد العقلانية واللاعقلانية، إلا تبعاً لانتقال هذه السلطة الجيوسياسية في القرن السابع عشر. لقد طبَّق كانط على الجزيرة الأيبيرية الآراء العنصرية نفسها في القرن الثامن عشر، التي طبَّقتها الجزيرة الأيبيرية على باقي دول العالم في القرن السادس عشر. وهذا الأمر يُفسِّر سبب إقصاء البرتغاليين والإسبان واستثنائهم من قانون الفكر في الجامعة الـمُغَرَّبة اليوم، بالرغم من وجودهم في مركز نظام العالم الذي أُنشِئ بعد عام ١٤٩٢م. فمنذ أواخر القرن الثامن عشر، احتكر الامتيازَ المعرفي وسلطة قانون إنتاج المعرفة في الجامعة الـمُغَرَّبة رجالٌ من خمس دول، هي: فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا، وإيطاليا، والولايات المتحدة الأمريكية.

ولمواجهة هذا التحدي الذي تُمثِّله الحداثة الأورومركزية* وبنيتها الاستعمارية الجنسية والعنصرية للمعرفة، اقترح إنريك داسل مشروع "تخطي الحداثة" Transmodernity لإتمام المشروع المتعلق بإنهاء استعمار المعرفة. وتعني كلمة Trans المأخوذة من مصطلح Transmodernity تَجاوَزَ أو تَخَطّى، فماذا يعني إذن تَخَطِّي الحداثة الأورومركزية؟

إذا كان المشروع الاستعماري الغربي للإبادة الجماعية البشرية والمعرفية ناجحاً -نوعاً ما- في أماكن خاصة من العالم، فقد خلَّف فشلاً كبيراً في نتائجه النهائية في معظم أنحاء العالم؛ حيث لا يزال الفكر النقدي حيّاً لدى الشعوب الأصلية، والمسلمة، واليهودية، والإفريقية، والنساء، وكذا الحال بالنسبة للعديد من المعارف النقدية في الجنوب العالمي. لقد تأثَّرت الثقافات والمعارف كلها بالحداثة الأورومركزية؛ فبعد خمسمئة عام من استعمار المعرفة لا نكاد نجد أيَّ تراث ثقافي معرفي، بمعناه المطلق، خارجاً عن الحداثة الأورومركزية، بل إن مظاهر المركزية الأوروبية استُبطِنت في العديد من النظريات المعرفية. ولكن هذا لا

* كان هدف مشروعي الحداثة، وما بعد الحداثة، هو السعي اللانهائي إلى امتلاك أشياء مجردة من كل القيم، ومنفصلة عن أيِّ ممارسة للفضيلة المدنية، وهذا يعني أن المشروعينِ يُمثِّلان معاً فلسفات غير مناسبة للمستقبل، وأن هدفهما الأسمى هو الهيمنة والإقصاء.

يعني أن كل تراث هو مطلق دخيل؛ إذ لا نجد شيئاً خارجاً عن نظرية المعرفة الغربية. وما تزال توجد وجهات نظر معرفية غير غربية لها خارجانية نسبية عن الحداثة الأورومركزية. لقد تأثَّرت المعارف والثقافات حقاً بالإبادة الجماعية البشرية والمعرفية، لكنها لم تُهدَم بصورة كلية. وهذه الخارجانية النسبية Relative Exteriority بحسب تعبير داسل هي التي تُقدِّم الأمل والإمكانية لعالم مُتخطٍّ الحداثة؛ عالم حيث العديد من العوالم ممكنة، باستعمال شعار زاباتيستا Zapatista.

يتيح وجود هذا التنوع المعرفي إمكانية النضال لإنهاء الاستعمار المعرفي، والقضاء على المجتمع الذكوري، اللذينِ لم يعودا بعد الآن يُمثِّلان مركزاً للسلطة في النظريات المعرفية المركزية الغربية ورؤاه للعالم. ولتجاوُز الحداثة الأورومركزية، اقترح داسل مشروع "مناهضة الاستعمار" الذي يقوم على التفكير النقدي للتراث المعرفي في جنوب العالم، والذي يساعدنا على إنشاء مشروعات تحمل أفكاراً مختلفة، وبناء معاهد استولت عليها الحداثة الأورومركزية، وإنهاء استعمارها من جوانب عدَّة. ففي الحداثة الأورومركزية، نجد أن الغرب احتكر تعريف الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحرية المرأة، والاقتصاد، وغير ذلك. ومن ثَمَّ فإن وظيفة مشروع "تخطي الحداثة" تتضمن إعادة تعريف هذه العناصر انطلاقاً من اتجاهات مختلفة، وَفْقاً للتنوع المعرفي للعالم الذي ينحو نحو معنى متعدد وعالم متعدد.[٤٦]

---

[٤٦] يبدو أن مقولات داسل كلها هي مسلّمات من وجهة نظر الباحث رامون كروسفوكيل. وبالرغم من أهمية المشروع (تجاوُز الحداثة) الذي دعا إليه، وتساوقه مع المنطق العلمي العام الذي ينتقد المركزية المعرفية الغربية، فإنه يمكن مناقشة بعض مقدماته وضوابطه المعرفية؛ لتطوير رؤية أكثر عمقاً وعالميةً. ومن المقدمات التي يمكن مناقشتها:

– فلسفة التحرير التي يُؤسِّس لها داسل، والتي ينضوي تحتها مشروع "تجاوُز الحداثة" تنطلق من منشأ وتجربة مغايرة (أمريكا اللاتينية)، فكيف يمكن تطبيق نظرية متولدة من مكان خاص على بقية بلدان العالم. وإن هدف فلسفة التحرير -انطلاقاً من عنوانها وأصولها الدينية- هو تحرير الإنسان من ظلم القوى المهيمنة، والدفاع عن الثقافة المنبوذة والفلسفات المهمشة والشعوب اللاتينية المقهورة، التي كانت تعتقد نفسها أوروبية الأصل، وذلك عن طريق إذابة الحدود بين الثقافات، فتنشأ هويات جماعية (مثل: الفقراء، والنساء، والسود، والهنود) يصار إلى تصنيفها؛ ما يؤدي إلى إعلاء هويات، وطمس خصائص هويات أخرى وإقصائها.

– عدم تفكيك بعض مقولات المركزية الغربية، ومن ذلك أن السرديات الفوقية (سرد حول سرد) التي يُقدِّمها داسل، والتي يسعى من خلالها إلى منافسة السرديات الفوقية الأورومركزية ما بعد الكولونيالية المهيمنة، التي تُقدِّم تفسيرات لتطور الرأسمالية وعلاقتها بالاستعمار؛ ليست تفكيكية، وإنما هي سرد مضاد لعملية الحداثة. وإلى ذلك يشير جوميز بقوله: "بهذا يخلق داسل نقصاً ثانياً، وهو تحويل الفقير إلى نوع من الموضوع المتعالي، الذي من خلاله

وإذا أهملت الشعوبُ المنتمية إلى جنوب العالم التعريفَ الغربي المهيمن، ولم تتبعه وتُقلِّده، فإنها تُلغى حالاً، وتُقْصى من المجتمع العالمي بتهمة الأصولية. فمثلاً، عندما يتحدث زاباتيستاس Zapatistas عن الديمقراطية، فإنها لا تُناقَش من منظور مركزي غربي، وإنما يُقترَح مشروع للديمقراطية مختلف شيئاً ما عن الديمقراطية الليبرالية؛ فيعاد تعريف الديمقراطية من منظور محلي مُتمثِّل في عبارة: "القيادة حال الطاعة" مع كاراكولس Caracoles بوصفها ممارسة مؤسسية ديمقراطية. غير أن استعمال مفهوم للديمقراطية مختلف عن الحداثة الأورومركزية يوصم بأنه يُمثِّل صورة من صور الأصولية. والشيء نفسه ينطبق على مفهوم "الحركة النسائية"؛ فإذا طوَّرت النساء المسلمات مفهوماً للحركة النسائية المسلمة، فإنه سيُلغى فوراً من طرف المؤيدين للحركة النسائية الغربية الأورومركزية بوصفه أبوياً وأصولياً.

إن مشروع "تخطي الحداثة" هو دعوة إلى إعادة تعريف العديد من العناصر التي استولت عليها الحداثة الأورومركزية، وعالجتها كأنها أوروبية؛ وراثةً وطبعاً، وذلك عن طريق مشروعات معرفية سياسية مختلفة متوافرة في العالم اليوم، وكلها تَنْحو نحو مشروع تحرُّري، مُناهِض للاستعمار، مُتخطٍّ "نظام العالم الاستعماري/ المسيحي المركزي الحداثي/ الغربي المركزي الذكوري/ الرأسمالي"، كما صَرَّح به داسل حين قال: "عندما أتحدَّث عن تخطي الحداثة، أرجع إلى المشروع العالمي الذي يهدف إلى تجاوُز الحداثة الأمريكية الشمالية أو

سيجد تاريخ أمريكا اللاتينية معناه. وهذا هو الجانب المضاد لما بعد الحداثة؛ لأن محاولات داسل ليست هي عدم تفكيك مركزية الموضوع المتنور، بل لتُحل محله موضوعاً آخرَ مطلقاً."

– الإعلاء من شأن فلسفة التحرير، وادِّعاء تفوُّقها على باقي الفلسفات. وهذا الزعم يتمثَّل في أمرين:

الأول: ادِّعاء فلسفة التحرير التفوُّق الأخلاقي المصوغ من تعاليم الكنيسة، وهذا ينقص من أخلاقيات ثقافات وأديان أخرى؛ ما يجعل أصحابها مجردين من الخطأ، ومتصفين بالبراءة، وغير ملامين ضد الشر والنظام القمعي الذي يناهضونه؛ فأيُّ فيلسوف تحريري ينحدر من هذا النظام تصبح أخلاقه سوية من دون حاجة إلى تمحيص، ويصبح قادراً على ممارسة الاستبداد الجديد شرعياً باسم التحرير، أو الخارجانية.

الثاني: وَسْم فلسفة التحرير بالفلسفة الأولى؛ إذ يُؤَكِّد أن فلسفة أمريكا اللاتينية تبدأ بفلسفة التحرر؛ ما يلغي كل الفكر الأمريكي اللاتينيي السابق، ولا يعترف بالفلسفات السابقة، وينفي الاستمداد من باقي بعض الفلسفات الأخرى، مثل: فلسفة هوسرل Husserl، وليفناس Levinas . (المترجم).

الأوروبية. إنه مشروع ليس ما بعد حداثي ما دام مشروع "ما بعد الحداثة" لا زال لا يُشكِّل نقداً مكتملاً للحداثة. إن مشروع "تخطي الحداثة" على العكس من ذلك، في نظري، هو مهمة مُعبَّر عنها فلسفياً، وتكمن نقطة انطلاقتها في هذا الذي كان منبوذاً، تافهاً، ومحكوماً عليه بعديم الفائدة بين الثقافات العالمية، بما في ذلك الفلسفات الهامشية أو المستعمرة."[٤٧]

ويدعو مشروع "تخطي الحداثة" أيضاً إلى حوارات سياسية فلسفية داخلية لإنتاج معاني متعددة، حيث إن العالم الجديد هو عالم متعدد Pluriverse. وبالرغم من أن هذا المشروع لا يعادل احتفال التعددية الثقافية الليبرالية للتنوع المعرفي في العالم، من حيث المساحة والموضوعات التي تركتها بنى السلطة الاستعمارية سليمة، فإنه يعترف بالتنوع المعرفي من دون نسبية معرفية. فالمطالبة بالتعددية المعرفية -خلافاً للعالمية المعرفية- ليست أمراً معادلاً للموقف النسبي؛ حتى إن مشروع "تخطي الحداثة" يعترف بالحاجة إلى مشروع عالمي مشترك متداول مُناهِض للرأسمالية، والذكورية، والإمبريالية، والاستعمار، لكنه يرفض عالمية الحلول، حيث يُعرِّف الواحد للبقية ماهية الحل.*

فالعالمية Uni-versality في الحداثة الأوروبية تعني أن الواحد يُعرِّف للبقية، ومن ثَمَّ فإن مشروع "تخطي الحداثة" يدعو إلى تعدُّد الحلول، حيث الأكثر يُعرِّف للأكثرية. وانطلاقاً من اختلاف التقاليد المعرفية والثقافية، فإنه ستوجد أجوبة وحلول متنوعة ومتعددة لمشكلات مماثلة.** إن الأفق المتخطي الحداثة يهدف إلى إنتاج مفاهيم، ومعانٍ،

---

47 Dussel, Enrique. "A New Age in the History of Philosophy: The World Dialogue Between Philosophical Traditions", Vol.9,No.1, *Prajñã Vihãra: Journal of Philosophy and Religion*, 2008, pp.19-20.

* ينسجم هذا المشروع في أصله مع دين الإسلام العالمي الذي ينشد هو الآخر مفهوم "الاختلاف والتوحيد"، حيث لا فضل أو سلطة لمخلوق على آخر. وهو يدعو إلى احترام التعددية والتنوع والتعارف والتعايش في ظل الوحدة والاحترام المتبادل، ونبذ ثقافة الهدم والإقصاء؛ فهو مشروع يُؤسِّس لجانبين من المعادلة، هما: التغيير المُستوعِب، والمحافظة على المُكوِّنات والمبادئ الأساسية للهوية الثقافية والتراث من حيث مصادرها ومعانيها. (المترجم)

** يمكن للباحث أنْ يطَّلع على أعمال بعض النُّقّاد الذين حاولوا بيان مواطن الضعف في نظريته، مثل: أوفليا شوته Ofelia Schutte، وهوراسيو سروتي غولبرغ Horacio Cerutti Guldberg، وسانتياغو كاسترو جوميز Santiago Castro-Gómez.

وفلسفات مختلفة، وعالم متعدد. وقد أكّد داسل أن هذا المشروع: "يَنْحُو نحو فلسفة عالمية مستقبلية متعددة. هذا المشروع هو بالضرورة مُتَخَطٍّ للحداثة، ولهذا السبب أيضاً هو مُتَخَطٍّ للرأسمالية... لزمن طويل، وربما لعدَّة قرون، ستستمر العديد من التقاليد الفلسفية المتنوعة لِتَتَّبِعَ وتُقلِّد طرائقَها الخاصة، لكن مع ذلك، لاح في الأفق مشروع عالمي آخر، مماثل لعالم متعدد، ومُتَخَطٍّ للحداثة (غير العالمي الوحيد، وغير ما بعد الحداثي). وفي الوقت الراهن، هناك "فلسفات أخرى" ممكنة؛ لأن العالم الآخر ممكن، كما صرحت بذلك الحركة الليبرالية لزاباتيستا Zapatista في شباس Chipas، المكسيك Mexico."[٤٨]

خاتمة:

تصدّى هذا البحث لمسألة إنهاء استعمار الجامعة المُغَرَّبة التي لا تزال تعمل في كنف فرضية "العالمية الواحدة" Uni-versalism، حيث الواحد (رجال غربيون من خمس دول) يُعَرِّفُ للبقية ماهية المعرفة الصحيحة والحقيقية. وقد انتهى البحث إلى توصيات يمكن بها إنهاء استعمار بنى المعرفة في هذه الجامعة، نُجْمِلها في ما يأتي:

١. الاعتراف بإقليمية Provincialism النظريات الغربية والعنصرية المعرفية والتمييز الجنسي المعرفي الذي يُشكِّل البنى المعرفية التأسيسية بوصفها نتيجة مباشرة لمشروعات الإبادة الجسدية والمعرفية الذكورية/ الاستعمارية في القرن السادس عشر.

٢. قطع الصلة بالعالمية الواحدة، التي ترى أن الواحد Uni يُعرِّف للبقية. وهذا الواحد، في هذه الحال، هو نظرية "المعرفة" لدى الرجل الغربي.

٣. جلب التعدد والتنوع المعرفي إلى قانون الفكر؛ لإيجاد تعددية في المعاني والمفاهيم. فالحوار المعرفي الداخلي بين كثير من التقاليد المعرفية يُسهِم في إعادة إنتاج تعريفات جديدة للمفاهيم القديمة، ويبتكر مفاهيم متعددة لعالم متعدد أكثر يُعرِّف للأكثرية، بدلاً من عالم واحد يُعرِّف للبقية.

---

48 Ibid, p.20.

فإذا أخذت الجامعات المُغَرَّبة بهذه التوصيات، فإنها ستوقف وجود المُغَرَّب والجامعة الواحدة، وستتحوَّل من جامعة مُوحَّدة مُغَرَّبة إلى جامعة متعددة مُناهِضة للاستعمار المعرفي. وإذا كانت المشروعات المعرفية الجنسية والعنصرية الأورومركزية الحداثية لكانط وهامبولد، هي التأسيس المعرفي للجامعة المُغَرَّبة منذ أواخر القرن الثامن عشر؛ نتيجة ثلاثمئة سنة من الإبادة الجماعية البشرية والمعرفية في العالم، فإن مشروع "تخطي الحداثة" لداسل يُمثِّل تأسيساً معرفياً جديداً لمستقبل الجامعة المتعددة التي ستُنهي الاستعمار، والتي سيكون إنتاجها المعرفي في خدمة عالم مُتَخَطٍّ لنظام العالم الاستعماري/ المسيحي المركزي الحداثي/ الغربي المركزي الذكوري/ الرأسمالي.

وإضافة إلى ما جادت به أقلام الباحث من آفاق معرفية ومنهجية في هذا الموضوع المهم، يمكن التنبيه على جوانب أخرى تفتح الباب أمام دراسات مستقبلية، منها:

أ. إعادة بناء المفاهيم المتولدة من تجربة غربية خاصة، وتركيبها في ضوء مشروع "تجاوُز الحداثة"، انطلاقاً من أواخر القرن الخامس عشر الميلادي. ومن بين المفاهيم المُؤثِّرة التي تحتاج إلى إعادة قراءة في ضوء "ثقافة عابرة للقارات" لا تعترف بالحدود الجغرافية والفكرية: الحدود، والتقليدية، والأصولية، والاستشراق، والإسلاموفوبيا، والنسائية، والديمقراطية، والذات والآخر. فهذه بعض المفاهيم التي يجب أن تعود إلى وعاء الذوبان لإعادة تعريفها؛ لأنها "مفروضة" من وجهة نظر "عالمية واحدة" على كثير من وجهات نظر عالمية أخرى.

ب. بدء العمل انطلاقاً من الجامعة؛ وعياً وتصوُّراً، علماً بأن الجامعات مثَّلت حجر الزاوية للفكر الاستعماري، ومناهضتها يجب أن تبدأ من المكان الذي انطلق منه هذا الفكر.

ت. ضرورة الوعي بالأفكار الاستعمارية الإقصائية التي اخترقت الفكر الإسلامي، واشتغل بها الدارسون كأنها إسلامية، وأعادوا إنتاجها من دون بيِّنة؛ إذ باتت بعض المذاهب الإسلامية تتبنّاها بغير وعي، وترى ضرورة فرض الإسلام بالقوة على جميع الشعوب في العالم، بوصفه الفكر السليم الذي يُحقِّق مصلحة الناس كافة، علماً بأن

الإسلام ليس ديناً عالمياً Uni-versal (بمعنى العالمية الواحدة)، وإنما هو دين عالمي يؤمن بالتعددية pluriversal؛ إذ يُقِرُّ بأن الاختلاف سُنَّة إلهية، وأن حكمة الله تعالى اقتضت أنْ يختلف الناس في أديانهم وأفكارهم ووجهات نظرهم، وأنْ تختلف نظرتهم فيما يخص تدبير شؤونهم.

ث. ضرورة مراجعة الفكر الإسلامي الحداثي "الأصولي" مراجعة نقدية وَفْق الأصول والكليات التي بُنِي عليها الإسلام، وتنقيته من شوائب الفكر الاستعماري، مع استحضار الفكر المهيمن، ثم دراسة الفكر الغربي دراسة تاريخية نقدية.